بقلم الكاتبة

تقى الموسوي



نساء العقيدة

القسم الثاني

قدمت لها

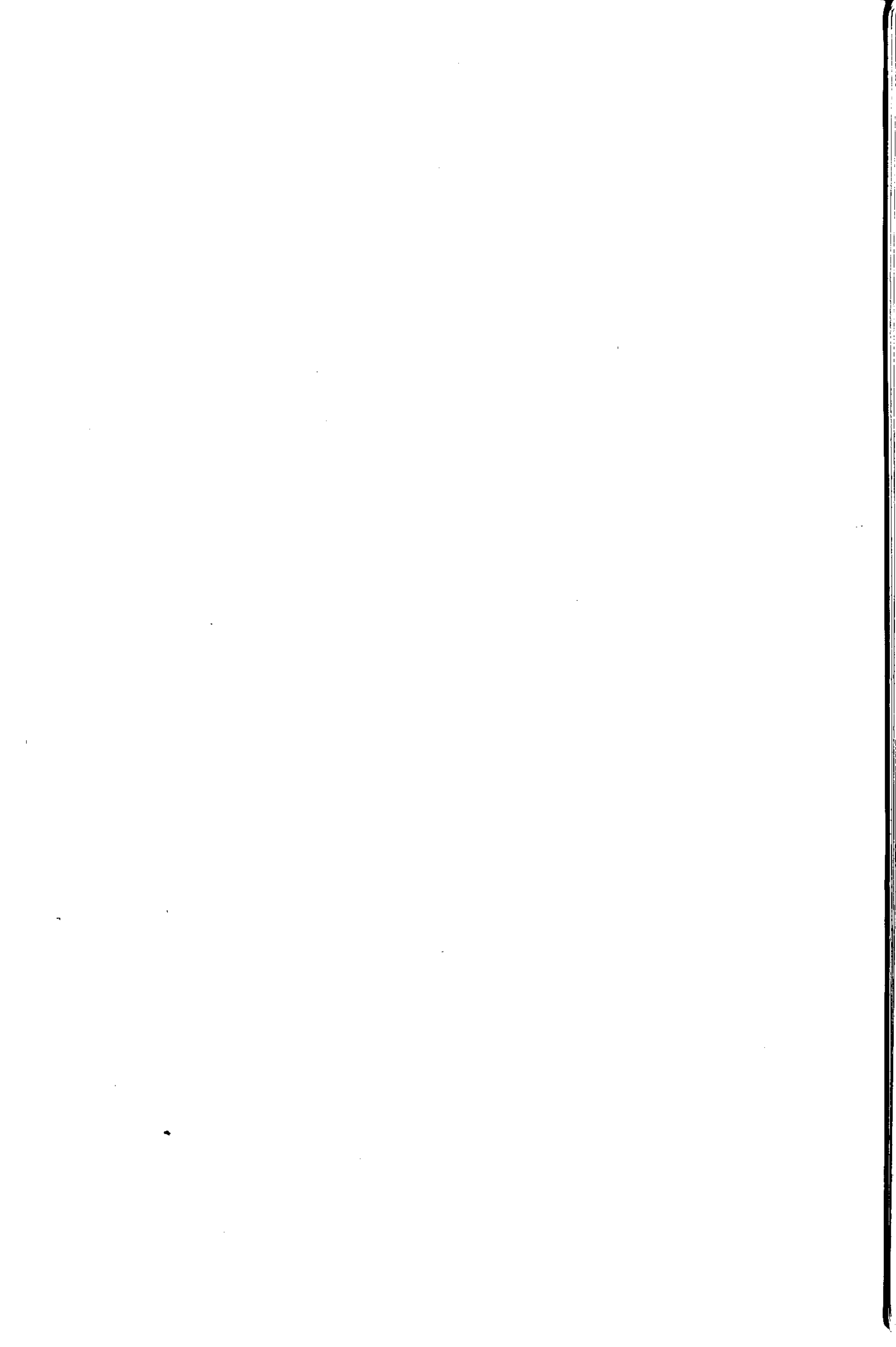
بنت الهدى

تقـي الموسـوي

بناء العقيدة

القسم الثاني

مطبعة اوفسيت الميناء ـ بغداد



المقـــدمة

بقلم الكاتبة الكبيرة
بنت الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

كانت المراة المسلمة الى عهد قريب تفتقر الى شـــيء مـــن الشعوربالمسؤولية الدينية الملقاة على عاتقها تجاهبنات جيلها المسلمات ولذا نجد الكثير مما يهم المراة بحثه والتعرف عليه قد اصبح غريبا عنها لاتكاد تبصر منه سوى معالمه الباهتة ، وذلك لانه بين حالين : فهو اما مهمل في دنيا البحث والتنقيب ، واما مسطر كتبته الاقلام الصالحة من الرجال ، والمراة مهما تفاعلت مع اقلام الرجال فهـــي سوف تكون اكثر تفاعلا ، واعمق تأثرا لو قرات مايخصها بقلم امراة تعيش ماتعيشه هي من واقع في الحياة ، ولهذا فان نجد من بنات الاسلام واحدة تعي مالها وماعليها بالنسبة لدينها الحنيف لهو احسن بادرة امل بعودة المراة المسلمة الىرحاب الله ، وهذه المجموعـــة الخيرة من (نساء العقيدة) تتحدث بصدق وخلوص عن واقع كانت تعيشه المراة المسلمة امس وافتقدته مع كـــل الاسف ، فهـــي

تحكي عن الايمان كيف يسبغ على قلب المراة بدلا من نفحات العواطف جذوات الحماس ، وكيف يلبسها عوضا عن مطرزات الوشي ابراد التضحية والفـداء .

ثم ان هذه المجموعة من تواريخ امهاتنا المسلمات ترسم ابعـاد العواطف في ميادين الحياة ، فتبرز من بينها عاطفة الايمان وهي قوية شامخة تتحدى كل اعصار واغراء ، وتصورها بارزة في الخطوط الاولى من سجل الاحاسيس ، ولهذا فقد جاءت والحمد لله اضمامة صالحة جديرة بالتوفيق والتسديد ، فاسأل الله تبارك وتعالى ان يوفق الكاتبة العزيزة « تقى » للعمل على مراضيه ، والتفـــرغ الى امثـال هذه الجهود المشكورة .

(وقل اعملوا فيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .
والله ولـي التوفيـق .

النجف الاشرف **بنت الهدى**

الاهـــــداء ...

الى اللائي عرفن الطــريق القويم وســرن عليــه ، والى اللائي انكرنه وجهلنه ، اهدي اشراق هذه المواقف العظيمــة تثبيتا للطيبات عليــه ، وحثا لهــن على السـعي لاجلـــه ، ودليـــلا للحائرات اليـــه ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الشجــرة الطيبــة

وضيقت قريش الخناق على الصفوة التي اتبعت رسول السماء ، تصب عليها وابل المحن والرزايا ، تقتل ، وتكوي بالنار ، وتصهر في الرمضاء ، وتمزق الاجساد بالحراب ، فلا يقودها ذلك الى حيث تشتهي من رجعة المؤمنين عما صاروا اليه ، واوبتهم الى الضلالة العمياء والجاهلية الحمقاء . وكان للقائد نصيبه الاوفى من التنكيل ، تسب ، وتسفه ، وتوذي ، حتى اذا اضناها دابها العسير مع الجبل الصلد الذي لايتزعزع في أن تصده عن امره تذرعت بالحصار ، واتخذته سبيلا الى ماتبتغيه من قطع دابر الحق واسكات نأمته ، فقطعت معه حبل كل وصال ،وسدت في وجهه الى الحياة الهانئة كل سبيل . وبدات حياة جديدة لامراة كانت انظر النساء وجها ، واوفرهن مالا ، واحسنهن حالا ، وانطوى امسها الزاهر بالمسرات في رمس الحاضر الاليم ، فلن يعود ليبتسم لها عن ثغر العطاء بمناهل الهناء ، ويجود بادواح الابتشار في مفازات الالام ، وهاهي حياة تكنفتها الاوصاب ، وثارت في ارجائها اهوال العيش البئيس المنكود ، فلا طعام طيب يبعث في الاوصال دفىء الحياة ، ولا انس الفته وعاشت في رحابه حيث كانت مهوى قلوب النسوة في ارجاء مكة . لقد تبدل كل شيىء ، الهناء بالشقاء ، والسعة بالضيق ، والانس بالوحشة ، لكنه القلب الكبير الذي آمن بمحمد ، وصدقه ، وطاف في دنياه السامية المشرقة بات يسرح في ظل المصطفى مع هذا العيش العسير في آفاق الرضى والتسليم ،ولم ينفك قلبها

الطهور عن دابه مع النبي يأسو كلمه ، ويشعب صدعه ، ويشيع في ارجائه من بسماته ضياء البهجة في داجية الخطب المرير .

ولم يخب رجاء البتول ان يهبها ربها وريثا لرسوله يملأ دنياها طيبا وهناء ، فانساب فيض اللطف في احشائها ، وفاض غدير الرحمة بسلسل النعمة الغامرة ، فاذا هي صفحة جديدة فيحياتها. راحت فاطمة الجنين العظيم في بطنها تكتب لها عليها سطور الخير والرفاه ومضت سيباً من ضياء السعادة يشق هذا الزخم المريع منظلمات الاتراح ،واصطبغت صفحة الافقامام عيني خديجة بالوان زاهية من البشر والانشراح ، وابتسم لها صبح اغر انبثق من وجه الجنين الساطع في رحمها ليبدد عاديات الليل القاسي ، انها هبة السماء تفيض في دنيا امها الوان الهناء ، تحدثها من وراء الاستار فتسكر من نشوتها ، فلا تفتأ تخلو اليها ماسنحت لها فرصة تناجيها ، ويعلمها الرسول بما اكنت في باطنها من الخلق السوي والصنع البديع قائلا :

انها الحوراء الانسية ،

وانها لفاطمة تطل على الدنيا ،

معين السرور للقلبين المكروبين ،

والفجر ينشق في الغد ،

عن شموس الهداية واسرجة اليقين .

وتمضي خديجة الى ربها لتذر محمدا وحده في الساحة اللاهبة مع صبيته الصغيرة ، فمن اين له بدفىء الحنان عند زوجه في صرصر العدوان الاليم ، وببرد الرحمة في لاهبة الخطوب ؟! لقد كان له في زهرائه عن زوجة عوضا ، فهي لم تمض الا وقد تركت في يد ابنتها مشعل البر والرعاية الذي كانت تنير به مسالك الرسول

الحالكة ، تمضي به على شانها لاتضعف عن الوفاء بما قد حملتها الام الكريمة . وكانت الصغيرة اما لرجل الخلود تبر به برها ، وتسقيه من حنانها وطيب مرآها ولقياها كؤوس الحبور ، فلا يكاد ياتيها من رحلته في دنيا الاتعاب والغموم حتى يانس الى احضانها البهيجة المعطاء الفياضة بالهناء ، فتتكشف ظلمات عنائه ، وتندحر جحافل غمومه ، بما تقوم به مما يحاكي فعل الام الحنون ، ويضارع حرصها الشديد على وليدها الوحيد ، بل هو من ذلك ارفع ، ومن هذا اسمى ، فلا غرو ان كانت ام ابيها على لسانه معترفا بالفضل الذي كان لها معه ، والنعمة التي اسداها الله بها اليه .

واكلت دودة الارض صحيفة الظالمين ، وخرج النبي واهله من ظلمات الشعب الى فسحة الحياة ، والرسول لاينى يدعو الى الله ، ويدل على هديه ، ويرشد الى رحمته واحسانه ، ولكن انى لمن طمس الحقد والعناد على اعينهم ان يبصروا ، ولمن ختم الحسد على قلوبهم ، واصم اسماعهم ان يعوا أو يسمعوا ، فما كان منهم الا ان اججوا الدنيا عليه نارا ، وكانوا في مسيرته براكين غضب تتفجر تحته ، ترفعه الى آفاق الهول ، ثم تعود به الى مهاوي العذاب ، وزهراؤه من خلفه بالدمعة الاسيانة تغسل الدم عنه ، وباليد الصغيرة الحانية تضمد جرحه ، والى الصدر الكبير المحزون تضمه وربما رفعت يديها وبصرها الى السماء لتدعو على من آذوا اباها ، وتسير المشيئة بدعائها الى الاستجابة ولو طال المدى ..

وها انت تراها حين يطلع الصبح على ابيها يقول له :

هيا الى شانك من الدعوة الى الله ،

يقول لها قلبها الكبير الذي اتسعت

رحابه الفسيحة لاسمى معانى البر

والرحمة والحنان ،

هيا يجنب ابيك على دربــه فلست تطيقين الا تريه ساعة وانت تعلمين انه مهوى الاذى ومقصد البلاء ،

فتقــوم لامر لازم ، فاذا اطــل وجــه محمد على النــاس كشرت الذئاب ، ونبحت الكلاب ، فتراها تدير طرفها مشفقة الى كل صوت مخافه ان ينقض ذئب ، او ينهش كلب ، واذا اتى احدهم فالقى عليه التراب ، او صب فوقه فرث الجذور ، راحت تنفــض عنه ذاك ، وتمسح عنه هذا ، ودمعها في تهتان ، وشجنها في مور ، وحزنها في فورة ، فاذا آب آبت بصحبته الى شأنها معه في بيته، فيعود بعد اذ هو كاسف حزين ، نابضا بالانس ، فياحا بالمسرة .

حتى اذا ضاقت بقريش الحيلة ، وعجزت كل سبيل سلكتها مع الرسول ان توصلها الى ماتحب ، عولت على آخر ماعندها من الامر فعزمت على قتله وقد ابصرته قد مهد لاصحابه سبيلا الـــى يثرب ، ودعاهم الى الرواح اليها نجاة من بطش قريش وفتكها . وكانت ليلة الهجـرة حيث انتصر الايمان الى الابد بعدما كان فيها على شفير الهاوية فاذا سقط فيها فلا رجعة له بعدها ، وان نجــا من شرها فقد أمنها ماطلعت الشـمس أو غربــت .

وينطلق علي بن ابي طالب خلف النبي بعد مبيته في فراشـه حماية له من الموت ، وذبا للمنية عنه ، وتمضي معه زهراء الاسلام في جمع من نساء بني هاشم مهاجرات الى الله لحوقــا بركـــب الهدى ، فلا انقطاع لهن عنه الا اذا انقطعت عنهن الحياة .

وفي المدينة لم يأمن محمد ــ وقد فر من حماقة قريش وغيها ــ

فقد لحقته بها شرورها .. فهو الحق الذي يريد ان يقمع باطلها ، ويزهق ضلالتها ، فلا بد لها ان تحاربه حفظا لكيانها ، ودفعا عن وجودها ومكانتها .

وفاطمة في حرب ابيها مع خصمه تتبعه كما الفصيل يتبع امه ، فلا تطيق ان تظل على البعد عنه وهو يقارع عدوه ، فلا تعرف عن أمره شيئا مع الظنون الموجعة والهواجس المستعرة ، فتراها خلف جيش الاسلام في لفيف من بناته يضمدن الجرحى ، ويسقين العطاشى ، ويشجعن على القتال ، فاذا سكنت الحرب ولمحت اباها هرعت اليه باللهفة والحنان فاحتضنته ، ثم نظرت في انحائه تبحث عن طعنة او كلم ، فاذا لم تجد حمدت ربها ، واذا الفت ذابت بلسما يذهب بالامه واوجاعه .

وكبرت الام الصغيرة ، فهي مليئة ، وضاءة المحيا ، تبهر الناظرين ، لها من حسنها اشراق اخاذ ، ومن مكانتها وطيب نفسها سحر غالب .

ويقدم الرجال على الرسول في خطبة فاطمة وفي نفس كل كاليقين انه لايقرنها باحدهم ، وهل قرين المراة عنده الا كفؤها ، وهل عشيرها الا ندها .

وكان رده واحدا انه ينتظر بها القضاء ..
ويعرف القوم من هو صاحبها ، ومن
ستقول السماء انه اهلها ، فيسارعون
اليه ، راغبين في ان يتقدم الى زوجه
وصاحبته ،

ولكنه الحياءوالفقر يفقدان به دون قصدهحين يقوم به العزم حتى كان له في نزاعه مع استحيائه ان يغلبه فيدخل على محمد في حاجته، ليجد ان الوحي قد سبقه اليه في ان يقضيها له فقضاؤها حتم .

وكان على النبي الهادي ان يكون للناس اسوة حسنة يسيرون على هداها ، ويمشون بضيائها ، وعليه ان يضع لهم من نفسه صورة للمرء المسلم في كل شأن من شؤون حياته ، فهو المقتدى ، وهو الصورة المثلى التي يسعى الناس الى محاكاتها . ويذهب الى ابنته يستشيرها في امر تزويجها ، فكان منها ان سكتت ، فآب وقد تهلل وجهه فرحا وهو يقول :

الله اكبر ، سكوتها اقرارها

واذ وجد النبي في علي الكفاءة ، لم يطلب منه شيئا من المال يعمر به بيته الا ما هو ميسور لديه ، فالمال عرض يأتي ويروح ، فكان مهر ابنته من علي درعه بدراهم قليلة . وكانت ليلة القران **صورة رفيعة انجبتها دنيا الايمان مقتدى ومثالا .**

وبدأت حياة ارفع زوجين ، وكان في زواجها اعلى مثل للزواج في دين الله ، زواج يرفض العقبات والاثقال التى تقصم ظهر الخاطب فيرتد عن بغيته يتعثر من فرط المرارة في مشيته ، فلا غلو في المهر يفحم القاصد ، ولارد للفقير ينهره ويقهره ويذله ، ولا بهرجة او رهج يحسبان من فيه ةالمراة وقدرها ،

فمن وصايا الايمان لاهله :

* من بركة المراة خفة مؤنتها ، وسرعة تزويجها .
* اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينـــه فزوجوه ، الا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد كبير .

فاين يذهب الفقير الذي يرفضه من يطلب الثراء ، هل الا الى الشقاء في جحيم الخطيئة وضرام السيئات باتباع الشيطان وسلطان الشهوات ، وله من فقره وهذه الحاجة المكينة في اعماقه سبيل فسيحة يدخل منها اليه يؤزه ويغريه حتى يوبقه ويرديه .

وبدأت الغاية من هذا البيت العاطر الوضاء تبدو رويدا رويدا، فهذا الولد البكر لفاطمة يدخل دنيا الزوجين يشيع فيها أريج الهناء ، ويشنفها بالحان الحبور ، ويلج قلب النبي اعظم الولوج ، فاذا هو بسمة طافحة على ثغره ، وبشر ضاحك في وجهه ، ونشوة عارمة في كيانه ، لانه السبط الهادي قبل ان يكون ولده من ابنته وقـد حرم البنيـــن .

وتروح الام العظيمة التي عرفت الامومة قبل ان تلد صبيا ، معابيها النبي يوم كانت له قلبا رفيقا ويدا حانية ـ تسبغ نعمـة الانشاء الطاهر العابق بعرف الكمال ، والفائح بعبير العصمة ، فكان الحسن عندها حبة تبر في معين النور تنهل منه فتشبع به الوانـا خلابـــة .

ويجيئها من بعده وليدها الحسين ، فهو على حال أخيــه عندها وعند أبيه وجده حبا وتكريما ، وحرصا على لزوم الهدى من الحداثة ، واتباع الصراط السوي من الصغر ، فاذا بمن اشـرب

الحق لايعدوه ، ومن شب في احضانه يشيب عليه ، بل ليس في كيانه محل لشيىء غيره ، ولايأتي منه شيىء لايرضاه ، وذلك شأن الايمان المتجسد يمشي على الارض .

وكان بعض فيض الفضل في دنيا الحسن ان اصلح الله به بين الامة اذ هي طائفتان متخاصمتان ، ولولاه لذهبتا طعمة السيف ، واشلاء على اطراف العوالي .

وكان من صنيع الله الى الارض بالحسين ان صيره نارا دائمة من الجهاد تصب على عروش الظالمين فتحرقها ،وبراكين فداء واصبه تزلزل الارض تحتاقدامهم ،وكان له ليكون ذلك مالايطيق اللبيب ان يرقى بصره الى حد بشاعته ، ولايقدر الحجر الخاوي ان ينظر اليه من فاجعة لاتساميها فاجعة ، ومشهد اليم لايناظره مشهد ،

ولكن المصائب على قدر اهلها ، وعظم البذل على قدر الباذلين .

وبقي الحسين لحن الفداء الاوحد الذي تترنم به العصور ، ونشيده الاسمى الذي ترده الاجيال .

وليس هذاشانالذكر ممن انجبتهفاطمة ،بلحتى الانثىكانتعلى شان امها، وشانالفنفيالشجر انيحاكي اصله فيالنضارةوالثمر، فزينب ابنة الزهراء هل تسامى بك الخيال الى ان تصيب امراة ضارعتها فيما حوت من عظم القلب ، وجلال النفس ، وخطر

السجايا ، وعلو الخلال ، وفيما ابدت من مواقف يحار فيها الفهم ، ويعجز عنها اشداء الرجال .

ولانها الزهراء نسل الرسول ، ووحى روحه ، واشراق نفسه ولانها معدان الخير ـ ومنبع النور ـ ، كان لها من الله تكريم لايدانى ، ومن رسوله تعظيم لايماثل ، فالله انزل فيها ، وفي بعلها وبنيها آية لو لم يكن لها منه سواها ، لكفى بها اجلالا وتبجيلا ، تنزل بها الوحي من عند ربه ، وراح الرسول من اجل ان تبلغ غايتها في الارض ، يدأب في ألوان شتى من عمله ، حتى يقر فيها قرارها ، لقد أفاض الوحي في قلب النبي في شأن أهله قول الله فيهم :

انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ، ويطهركم تطهيرا .

فجمعهم عنده ، ورفع يده قائلا

اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فاذهب عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا .

ويروح بعدها ثمانية عشر شهرا اذ ينهض للفجر ، يقف على بيت فاطمة ليقرأ الاية موذنا بقدوم الصلاة .

وفي سورة الدهر هل رايت تمجيدا اسمى في غيرها لسواها ، وهل ابصرت تكريما ابين فيما عداها لغيرها ، لقد رايت فيها فاطمة حيث تجلس في بحبوحة الرضوان بين الطيب والضياء والجمال ، لانها لم ترد الا الله ، ولم تكن ساعة فيما لايرضاه ، ولم

تنأ حينا عما يحب ، ولانها جاءت بامر يعز على سواها ان تجيىء به ، وتعجز سجيه غيرها ان تنجبه ، لقد نذرت انها ان ابل ابناها العليلان لتصومن ثلاثة ايام شكرا لله وحمدا ، وحين اعطاها الله مارامت ، وفت بنذرها فصامت ، فما يحين لها ان تفطر حتى يطرق بابها طارق يتضور من جوعه ، ويستغيث من سغبه ، فتهبه ومن معها في البيت طعامهم ، ويظلون هكذا سغبا جائمين ثلاثا لا يذوقون غير الماء .

وكان مشهدا حزينا في عين الرسول حين رآى زهراءه ومن معها يرتعدون من جوعهم، وقد ضمرت بطونهم ، وتغيرت الوانهم ، فيرق لحالهم ، ويخشع لمرآهم ، ويشق عليه ان يرى ابنته الناضرة قد شارفت على الذبول . ويفيض على فمه وحي الله وقرآنه :

ان الابرار يشربون من كاس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفسيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا ..

ثم كان من امر نجران ان بعثت نصارها من يجادل الرسول في عيسى ، ويطول المراء ، ويشتد اللدد ، حتى يقطع الله دابره بالقول الفصل :

فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم
فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ، ونساءنا
ونساءكم وانفسنا وانفسكم ، ثم نبتهل
فنجعل لعنة الله على الكاذبين .

وتلمحه عينك مشهدا خاشعا يتنزل بالجلال والرهبه ، فهذا محمد الرسول على يده الحسين ، ويقود بالاخرى حسنه ، وزهراؤه من خلفه ، يتبعها صنوه الى حيث تكون المباهلة وسؤال الله نزول النقمة بالحائدين . وكانت الزهراء من هذا الموكب الالهي بعضه ، وقد اوشك الله أن يسمع نداءها ، وان يجيب دعاءها ، فيصب عذابه ، ويفجر جحيم نقمته .

وكان حبها بأمر الله فرضا واجبا ، وكانت مودتها اجرا كريما يفي للرسول بحقه لجهده الجسيم ونصبه البالغ من اجل الناس كي يردوا مناهل الحق ، ويدخلوا رياض الايمان .

قل لا اسالكم عليه اجرا الا المودة في
القربي ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها
حسنا ، ان الله غفور شكور .

وكان من شانها مع الرسول ، وشأن الرسول معها مايشرح الصدر لها ، ويبهج الخاطر بالركون اليها ، ويبعث في النفس بالغ العجب لفرط تعظيم الرسول لصفيته . انه يقوم لها في مجلسه ان اقبلت عليه ،ويجلسها الى جواره،ولايني يطريها ويعظمها ،ويرسلها مرارا في شانها ، وجلالة قدرها ، وعظم خطرها .

اما ترضين ان تكوني سيدة نساء العالمين .

انها سيدة النساء يوم القيامة

فاطمة بضعة مني ، فمـن اغضبها اغضبني .

رضى فاطمة من رضاي ، فمن احب فاطمة فقد احبني .

وانه ليداب في وصالها ، ويديم زيارتها ، فهي بضعته ، ومنبع اسباطه والهادين من بعده ، واذا عزم على سفر ختم بها ليكون آخر لقائه بها ، واذا عاد منه كان بها اول لقائه ، وكان عند الناس من هذا كله صورا فريدة لحب النبي لبتوله ، وكان منه اليقين بانها ارفع النساء عنده ، واحبهن اليه ، وافضلهن في ميزانه ، حتى ان عائشة اذ تسال عن احب النساء الى رسول الله تقول ـ فاطمة ـ .

لقد كانت الزهراء شنجة من لحم ابيها ، فلم تزل نفسها تنجذب اليه ، وتهفو الى هديه ، وتسير على أثره ، وتسبح في اشراق روحه ، حتى عادت نفسها بضعة من نفسه ، لها من مزاياها مايطير بها الى دنيا الكمال ، ومن رشدها مايحرسها عن الرذائل في معقل العصمة . وانها اذ هي شيىء من روحه لتفهم روحه ، وتعلم مايعتمل فيها ، وما يوذيها ويسرها ، وفي الملاءة التي وضعتها على بابها فازالتها لكراهية ابيها مايومىء الى ذلك ، فقد اعطيت عباء خيبرية فوضعتها سترا على بابها ، فلما ابصرها النبي لم يعجبه في نفسه ان تضع فاطمة مثلها على بابها رغبة منه في ان تزهد في المتاع زهده ، وان تعزف عن الدنيا وزخرفها عزوفه ، فهو القائد والمقتدى ، وعليه الزهادة والبعد عن العرض الزائل كي لا يتبيغ بالفقير فقره ، ولايشتد بالغني شرهه وحرصه ، وهي في عيون النساء كما أرادها مثله في عيون الرجال . وكان بعد انصرافه وقد

فهمت ماجاشت به نفسه أن نزعتها ، وارسلت اليه بها يفعل بهـــا مايشاء ، وكان مشهدا عظيما ان قام النبي فرحا مثلج الصدر ، يقولها ثلاثا :

ـ فعلت فداهـــا ابوهـــا .

ومثل هذا اباء ابيها عليها ان تدخل بيتها خادما يعينها علـى شؤونها ، ولعل في المؤمنات من ليس لديها خادم يعينها ، ويعطيهـا مكان ذلك سبيلا الى الجد في العبادة ، والمبالغة في التقرب الـــى الله .

يقول علي : كانــت ـ اي فاطمــة ـ احــب اهله اليه ، وكانت عندي فجرت بالرحــى حتى اثرت في يدها ، واستقت بالقربـة حتى اثرت في نحرها ، وقمت البيت حتى اغبرت ثيابها ، واصابها من ذلك ضرر ، فسمعنا ان رقيقا اتي بهم الى النبـــي ، فقلت لو اتيت اباك فسالتيه خادما يكفيك، فاتته ، فوجدت عنده حداثا ، فاستحــت فرجعت ، ففدا علينا ونحــن في لفاعنا ، فجلس عند راسها ، فادخلت راســهـا في

اللفاع حياء من ابيها ، فقال ــ ما كــــان
حاجتك ــ ،فسكتت مرتين فقلت أنا احدثك
يارسول الله انهذه جرتعندي بالرحىحتى
أثرت في يدها، واستقت بالقرب حتى أثرت
في نحرها ، وقمت البيت حتى اغبـــرت
ثيابها ، واوقدت القدر حتى دكنت ثيابها ،
وبلغنا انه اتاك رقيق وخدم ، فقلت لهــا
سليه خادما ، فقال الا ادلكما على خيــــر
مما سألتما ، اذا اخـــذتما مضاجعكمــا
فكبرا اربعا وثلاثين ، وسبحا ثلاثا وثلاثين ،
فهــو خير من خادم يخدمكما .

ونظيره انه رآى في جيدها قلادة من الذهب هي بعضــ ما اصاب بعلها من الغنيمة ، وعلى ولديها قلبين من فضة ، فابصرت عنده الكراهة ، ورات لديه اباءه انتكون ابنته على هذه الحال ، فباعت قلادتها ليومها ، واشترت رقبة فاعتقتها ، وبعثت بالسوارين الى ابيها يوجههما حيثيريـــد .

وانها من عظيم اقتدائها بابيها لتحاكيه حتى في مشيه وحديثه، فلا تخرم مشيتها مشيته ، ولا اشبه بحديثه من حديثها ، تقــول عائشــــة :

ــ اقبلت فاطمة تمشي ماتخطىء مشيتها من مشية رسول اللهشيئا .

وتقـــول :

ـ مارايت احدا اشبه سمتا ، ودلا ، وهديا ، وحديثا برسول الله في قيامه وقعـوده من فاطمـــــة .

ولهذا الشبه بين محمد وابنته في السمت والهدي والشمائل رام ان يربط المراة المسلمة بها ، ويعلمها ان تاخذ دينها عنهـــا ، تستهديها ، وتسترشدها ، وتقصدها في مواطن الحيرة لتدلها على سبيل الرشاد ، وتأتيهما فيما لا تعلمه فتأخذ عنها العلم كل العلم ، واضحا لاغبش فيه ، صادقا لايخالطه كذب ، يذكرها سمتها بسمت الرسول ، ويدلها علمها على علمه ، واذا سألته امراة في امر ، وكانت زهراؤه الى جنبه ، التفت اليها يسألها فترد صوابا قاطعا ، فـلا يزيد ، ولايعقب .

ولابد للشمس النيرة من أفول ، وللشعلة الوهاجة من ان تخبو ، ويحين لرسو لالحق ان يذهب الى بارئه ، قد بلغ ماحمل ، وادى احسن الاداء ، وتقف الزهراء على هول فظيع يحل بساحتها ، هذا أبوها يجود بنفسه ، يطوف به النزع بين اطواره ، فتحتــرق لوعة ، وتذوب مرارة ، فلاحول يدفع ، ولا دواء ينفع ، ثم وذلك فرط الهول لاكلمة له تسمع ، ينادي فلا يجاب ، ويامر فلا يطاع ، وهي تعلم ماالذي يريد ، وماالذي يرمي اليه مما يأمره، وما مغزى مايحاوله في آخر ساعاته ، فحين تراه انه الى حيث يريد يكبو حين يخطو ، وان الناس لايسمعون اذ يؤمرون ، تروح في غمرات الحزن تشرب كؤوسه المصبرة .

ولاتزال الى جنبه مع حسنيها، فنفس محمد لاتطيق ان تفارقهم وانها لترجو ان يكون آخر عهدها بهم فتبصره يضمهم ويشمهم كانهم ورود عاطرة يستروح منها عبير البهجــة .
ولاغرو ان يلمح محمد في عيني فاطمة دمعتها اللاهبة ، وفي قلبها

لوعتها الثائرة ، لحال ابيها المكروب ، ولهذا الظلام الماحق يتربص بالضياء يهم ان يفتح في وجهه ابواب العناء :، وقد عرف مآلها بعده وانها اقرب الناس لحوقا به، فاراد ان يطلعها عليه كي تقر عينها ولا يرهقها الحزن ، ولعله قد سأل الله ان يلحقها به عاجلا كي تنجو من مرارة الحياة وغيظها ، وتسكن الى جنبه في نعيمه ، ويدنيها منه يسارها فاذا هي باكية ، ثم يدنيها اخرى فاذا هي ضاحكة ، ومن حولها نسوة النبي يوشكن ان يقضين عجبا لهذه الصورة الفريدة من العناق والمسارة والانتجاء التي يعيشها النبي مع اهل بيته على مرآى ومسمع ، مؤذنا انهم حملة سره ، ولجأ أمره ، ومعدن علمه ، ووعاء فهمه ، قالت عائشة :

ـ دعا النبي فاطمة في شكواه الذي قبض فيه ، فسارها بشيء فبكت ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت ، فسألناها عن ذلك ، فقالت اخبرني انه ميت فبكيت ، ثم اخبرني اني اول أهلة لحوقا به فضحكت .

وحين تغرب الشمس تبقى فاطمة من بعدها في داجية الالم الفادحة ، ودجنة الحزن الفظيعة ، تذوب اسى ولوعة، وتتميز مرارة وعذابا ، فقد فقدت كهفها واباها ، وموضع انسها وسرائها ، وضاع من يدها ماهي اهله من حقها ، واطبقت عليها كثافات الهول بفاجعة الفقد ورزية الحرمان ، فهي لا تفتأ على قبر ابيها تشم الثرى ، وتنادي الجدث الدفين تحته ، وتناجي الروح التي صعدت الى ربها راضية مرضية :

ماذا على من شم تربة احمد الا يشم مدى الزمان غواليا

صبت علي مصائب لو انها صبت على الايام عدت لياليا

وكان عليها ماعلى اهل هذا البيت من عبء الجهاد ، وثقل النصب والجهد في ذات الله . وان تكن يدها قد خلت من الصمصام تخاصم به الفرسان فان مقولها صارم لاتفتك فتكته السيوف القاطعة ، وان

في قلبها من العزم ما لاتحتمله قلوب الصناديد .

وها هي على الساحة تارة تطوف على الناس تبصرهم موطن الصواب ، واخرى تقف امام الهيكل القائم تسد ابواب الحجة فما سوى حجتها داحضة ، وتقرع بها فلا مناص من الزامها .

وهكذا هي في وصبها للحق ، وجهادها في سبيل الله ، حتى قتلها عناؤها له ، واتى عليها تعبها من اجله ، وقد قضى الله الا يموت أهل البيت الا وهم شهداء .

وان لمشهد موتها لروعة بالغة ، وجلالا عظيما ، انها على موعد مع ابيها ان تكون اول من يمشي خلفه الى ربه من اهل بيته ، وقد بدت اشراط الامر وآياته ، وانها على غير طبعها كل يوم ، كل حديث نفسها الموت ، تحس بدنوه منها ، واقترابه اليها ، حتى ليكاد ان يخامرها ، وانها لتكاد تسمع هاتفا صوته صوت ابيها يدعوها اليه ، فقد برحه الشوق، واضناه الحنين .

وكانت اسماء هي من وقفت على مشهدها تموت ، وهي من صنعت لها نعشا تحمل فيه حياء عظيما منها ان ترى وقد وصفها الثوب الذي يطرح عليها اذ لم يكن يعرف العرب نعشا يحملون فيه موتاهم ، وهي التي راتها حين رات هودج جثمانها قد ابتسمت ولم تكن قد راتها تبسمت منذ ذهب عنها ابوها . وكان في موتها وهي من يؤذي الله ما آذاها ، ويغضبه ما اغضبها آية بينة للمتوسمين، وكان فيه وهي الخفرة الحيية دليلا مشرقا لمن ينشدن المثل الاعلى للحياء ، وكان من عطائه ان ستر الناس موتاهم بالنعش الذي قاد اليه حياء سيدة النساء .

القلـب الكبيـــر

الثلة الخيرة التي هفت الى النور ، وسرحت في لألائه ، وسبحت في معينه ، ونهلت من فيضه الذ كؤوس الدعة والانس والارتياح ــ يرسف المستضعفون فيها في قيود قريش ، وقريش سادرة في غيها تفور بهم في متاهات العذاب ، وتخوض بهم غمرات الايلام ، قــد قذفتهم في لجج النقمة ، والقتهم في عباب التنكيل ، ومضت تصب على رؤوسهم حميم الويل ، لانهم تركوا الضلالة ، واتبعوا الهدى ، وذلك مايهدم كيانها ، ويعلي من كيان الدين الجديد ، ولكنهم برغم ذاك كالرواسي الشامخات ، لاتابه للريح العاتية ، فلا يزيدهم عذابها ووبالها الا صلابة وثباتا ، فعاد كيد قريش اليها ، وارتد رمحهــا الى قلبها ، وراح سوطها يلهب ظهرها ، حين يهد أعصابها هذا الوفاء العجيب والبسالة المذهلة ،وحيث تكون مشاهد الانتقام لسانا واعظا وايما لسان ، ونبراسا هاديا وايما نبراس . ولم يزل رسول الحق ينظر الى اصحابه يلقى بهم في جحيم الغيظ والنقمة فلا يحورون حتى تذهب ارواحهم الى بارئها ، او تفك عنهم قريش طوقها ، ولا يلفي لنفسه الحزينة وليس لهم غير الصبر والسلوى عسى الله ان يفتح لهم بابا الى النجاة ينآى بهم عن موطن الاذى .

ويدلهم نبيهم على ارض تحميهم من مكر قريش ، وتصد عنهم عواديها ، فقال لهم :

ــ لو خرجتم الى ارض الحبشة ، فان بها ملكا لايظلم عنــده احد ، وهي ارض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجــا .

وبدات قافلة الهجرة رحلة الهدى المستضعف عن وجه البلاء الى مافيه نجاة الهاربين الى الله عن مصدر الفتنة الطاغية ، وهـذا هو الركب الهارب رجالا ونساء ينطلق صوب الحبشة في حيطة وكتمان مخافة ان تعلم قريش فتحول بينهم وبين مايرمون ، وكان فيمن هاجـر ابو سلمة بن عبدالاسد وزوجه ام سلمة .

وحين ترى المراة وهي التـي تنشا في الحلية ، وتانس الى الدعة والراحة ، وكل همها ان تبحث عن المرود والعطر ، قد شدت رحلها في هذا الركب المهاجر تتحمل اتعابه ، وتسعى لغايتها ، تعلم انها قد اضحت في دنيـا الاسلام شيئا آخر ، فعوضا عن التفاهة التي كانت تطويها ، صارت تحمل الاهداف العالية والهموم العظيمة ، وبدلا عن الفراغ الذي كان يلفها غدت تنطق ارجاؤها بالحق والحكمة ، وصار مكانها رفيعا بعدما كان وضيعا ، وغادت شيئا بينا في هذه الحياة بعدما كانت مثل سقط المتاع ، وراحت في ظلال الاسلام تناهز الرجل في دابه له ، وتضارعه في تحمله الاتعاب من اجلـه .

واصاب المهاجرون هنالك غايتهم ، ووجدوا ماوعدهم نبيهم ، وحلوا منزلا خصيبا ينسيهم جدب ساحة مكة ، وحلوا على رجل شهم كريم

البسهم من ثياب العطف والرعاية مانسوا له ما كانت تلبسه اياهم قريش من ثياب المحن وابراد الالام ، لقد حنا عليهم ، وبرّ بهم ، وبذل لهم ، اذ لا ينسى انهم قد عذبوا وطردوا لانهم صاروا الى دين ينسبونه الى السماء وهو على مثله ، وقريش التي فتنت وشردت لاتميل اليه ولا اليهم ، فهو بازائها كالخصم ازاء خصمه .

وتمضي بهم الايام مع الغربة عن الاهل والاحبة ، وعن مهبط الوحي ومنهل الضياء ، وان في نفوسهم للهفة شديدة الى بلد ولدوا فيه ، وموطن عاشوا في كنفه ، وصحب احبوهم وانسوا بهم .

ويجيئهم في الانباء ان قريشا قد عدلت عن ضلالتها ،وهجرت شركها وصارت الى الهدى ، فداخلهم سرور شديد ، وسرت في انحائهم بهجة عظيمة ، وراحوا يعدون عدة الرحيل ، وقلوبهم

الملتهبة لفراق الاحبة تكاد تركض امامهم ، وتطير على جناح الشوق المستعر الى مكة .

وعلى اعتاب مكة تحطمت الآمال ، وهوت الاحلام ، واذا الامر فرية جاءت بها قريش لترجعهم اليها لتمسك بهم ، وتزجهم في كهوف العذاب عسى أن يرجعوا عما مالوا اليه من متابعة محمد ، ولئلا يظلوا في ارض النجاشي يرفعون من شأن نبيهم ، ويلفتون الانظار اليه ، وقد يدعون الى أمره فاذا له أتباع في خارج الطوق الذي ضربته عليه وعلى صحبه .

وهذه قريش على حالها بالامس تدور بهم في دنيا البلايا ، ترتقي بهم متون الاهوال لتقذفهم من عليها الى مهاويها ، وقد استطاع نفر منهم ان يدخلوا مكة بجوار من يحميهم ، واستجار ابو سلمة وزوجه بخاله ابي طالب .

ولم يكن من المستضعفين الا ان تسللوا ثانية الى الارض التي منعت عنهم الاذى ، وعادوا من حيث اتوا ، ولم تتغير بهم الحال هناك ، فهم كما حلوا اول مرة مكرمين معززين في دنيا عامرة بالحب ، محفوفة بالبر والرحمة . وقريش تتطس اخبارهم علها تسمع منها مايرضيها ، ويعلمها ان الملك قد طردهم عن ارضه ، وحرمهم من حمايته ، لتهجع ناعمة البال وتغفو قريرة العين . لقد كانت تخشى ان ينتشر امرهم ، وان يعم خطرهم فلا تستطيع ان تظفر بحتفه ومنيته ، وقد عزمت على قتله وهو في مهده .

وراحت تسعى للوقيعة بهم ، والفوز بنبذ الملك لهم ، وحنقه عليهم ، فلا يهربون منها اليه ، ولا يعوذون به من كربها ، فتبعث اليه مع نفر منها هدايا نفيسة لتخدع بها الملكعما شاء من حماية خصمها والعناية به .

ويمضي النفر بقلوب تغلي كغلي المراجل بحقد بالغ وحسد اكول ، وسجدوا للملك اعظاما وتكريما ، ثم ابلغوه ماجاؤوا اليه ، فقال قائلهم :

ان نفرا من بني عمنا نزلوا باراضيكم ، فرغبوا عنا وعن الهتنا ، ولم يدخلوا في دينكم ، بل جاؤوا بدين جديد مبتدع لانعرفه نحن ولا انتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قريش ليردهم اليهم .

واحضر الملك بين يديه اهل الايمان ليسألهم عن شأنهم ، وكان جعفر متكلمهم ولسانهم ، فراح يشرح للنجاشي شأنهم مع قريش الغاشمة التي انصفهامحمد ودلها عل ىالخير ، وجاءها بما يفتح ابواب السعادة والهناء فابت الا ان تكفر ، وتسومه سوء العذاب ،

وتصب عليه وعلى صحبه افانين البلاء ، ويسأله النجاشي :

ـ هل عندك شيء مما جاء به ؟ .

ـ نعـــم .

ـ فاقرأه علي .

فتلا عليه سورة مريم الى قوله تعالى والسلام علي يوم ولدت، ويوم اموت ويوم ابعث حيا ، ويخر الملك ساجدا لايدري ، قـــد بهرته الآيات ،وداخله من جلالها خشوع ورهبة، ورفع راسه ليقول :

ـ ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ويلتفت الى رسولي قريش اليه ليقول لهما :

ـ انطلقا فوالله لا اسلمهم اليكما بدا .

وتمر الايام حتى تلوح لهم بشائر الخير اذ علموا ان نبيهم قد هاجر الى يثرب تحميه مكر قريش ، وتكفيه بلاءها ، فسيكون لهم اليوم ان يؤوبو االيه حيث قر يهنأون بالقرب منه ، وينعمون بالري من فيضه العاطر ، وآب جمع منهم ليكونوا بين يدي الرســول جنودا امناء ، واتباعا مخلصين ، يشاطرونه الهموم ، ويعاضدونه على اثقاله ، وكان فيمن عاد ابو سلمة وزوجه ، وكانهما قد ظنا الخير باهل مكة ، أو امنا منهم ان يصيبهما اذاهم حين تركهم النبي ونآى عنهم ، فما الذي يدعو الى متابعة الاذى له ولاصحابه ، فمرا بهم ، فارتهنا ، ولم تأذن لهما قريش بالرحيل على حرصها الا يفوتهـا احد من المسلمين الى النبي مخافة ان يجتمع اليه جنده فاذا هــو يسوق الجيش الغفير يسعى حثيثا ليذيل مجد اللات ويطيح بعرش هبل ، واندفع ابو سلمة بالعزم والاصرار على الخروج عن مكـــة الى حيث منهل الرحمة مصطحبا زوجه وابنه ، فقامت قريشــ لمنعه ، ووقفت دون غايته ، وقام اهل زوجه يجرونها لتعود معهم ،

وراح اهله يجرون بصبيهم لياخذوه منه ، فيذروه وحده بغير زوجة ولا ولد ، فان ذلك من رايهم السبيل المنجح الذي ينيلهم مايتمنون من منعه عن المسير وراء محمد ، وطار صوابهم مايرون من ابائه الا المضي على درب اللحوق بالرسول على حرمانه من زوجه وولده .

وتركوه يفلت من ايديهم ، فان رجلا يصر على الرواح الى يثرب مع مافعلوا به لعزيز عليهم ان يقفوا له في كل مرصد ليصدوه ، ويسدوا بوجهه كل سبيل ليمنعوه ، وتظل ام سلمة من بعده باكية شاكية ، مقفر نهارها ، موحش ليلها ، لاتفارق البكاء لزوجها الذي مضى بدونها ، وولدها الذي اخذه أهل بعلها اليم ،ولغايتها السامية التي لم تفز بها من اللحوق برسول السماء واتباعه . فرق لها القوم، فاعادوا اليها ابنها ، وظلت الزوجة الوفية تحن الى زوجها حنينا بالغا ، وتحزن لفراقه حزنا شديدا ، لايجنها معهما ليل على دعة ولا يطلع عليها نهار بخير .

ومضى على ذلك عام رات فيه ألوان المرارة والشقاء ، وفيما هي في أطوار محنتها ، واطباق بلائها ، اذ مر بها رجل من قومها ، فابصر حالها ، وعجب لامرها ، واكبر فيها وفاءها ، فقصد قومه يناشدهم الرحمة بها ، والاحسان اليها ، فنال الذي اراد ، فاذا هي امام حلم عزيز قد تحقق ،ومسالة بعيدة قد اصابتها ، وقامت تشد رحلها لتنطلق خلف الرسول وجنده لتهنأ بالعيش الرغيد في تلك الربوع الطيبة .

وتمضي وابنها بغير لجأ ولا مرشد صوب يثرب ، وتقطع هذه المسافات البعيدة بما فيها من اتعاب ومشقة وعذاب ، غير آبهة ولا حافلة ، ولم تزل تدوس متون اهوالها بباسها الفض وقوتها الواهنة . متصبرة محتسبة ، لها من هواها بالايمان ، وشوقها

الى بعلها حبل يشدها الى يثرب ويجذبها اليها جذبا ، حتى بلغت موطن الاحبة ، ومأمن الهاربين عن الاذى ، ومعقل الباحثين عن عزة الايمان وسؤدده .

وتمر بالاسلام واهله في المدينة ظروف قاسية يخرج منها منتصرا تارة وسالما اخرى ، فهذه بدر معركة حامية الوطيس ، ملتهبة النار ، بعيدة الخطر ، كان الاسلام فيها على قيد شعرة من حتفه ، ولكن الله مع دينه ، فايد القلة ، ونصر الضعفاء ، واعان العانين ، فاذا هم الغالبون ، يحصدون روؤس الغاوين ، ويسوقون اسراهم ، ويغنمون متاعهم ، ثم كان لهم في مفاداتهم فضل من ربهم فطابوا به وسعدوا . وكادت ان تصفو لهم حياتهم الهانئة بعد النصر العظيم ، لولا أن قريشا يدفعها حب الانتقام واخذ الثار لما حل بها من الشر في بدر ، جاءت بالعدة والعديد ، والجند والحديد ، لتضرب ضربتها القاصمة ، وتفتك فتكتها الشديدة . وتنفجر احد حربا ضاربة اصابت فيها قريش بعض ما ارادت حين انكسر المسلمون، وفروا عن الساحة طالبين النجاة ، راغبين في الحياة ، تاركين محمدا والنفر الذي رجوا الله اليوم الآخر في فورة اللهيب يقابلون جموحها بالبسالة النادرة ، ويصبون عليها سحائب البأس والاقدام وابلا يهد شموخها وجمحانها ، حتى كان لهم ان يحفظوا نبيهم ، وان يدفعوا عنه حتفا اكيدا اوشك أن ياتي عليه ، وخسروا النصر وهو لهم ، ومن حقهم ، فهم يقاتلون لله ، وعدوهم يقاتل للطاغوت ولشهواتهم ، لكنهم حين فارقوا نصح الرسول ، وخالفوا امره ، وحليت الدنيا في ابصارهم ، وراقهم مايرونه من زبرجها حين فر المشركون او ل الامر تاركين غنائمهم نهبا للمسلمين ، فتركوا مكانهم من الجبل ، وفتحوا للمشركين سبيلا الى ضربهم من خلفهم ، فاصيبوا بالذعر والارتباك ، وراحوا من حيرتهم يضرب بعضهم بعضا حتى قتلوا اليمان لايعلمون به من فرط الهول الذي نزل عليهم ،

واصيب زوج ام سلمة بجرح بالغ لم يزل معه يطوف به دنيا الالم المرير ، ويجرعه صاب العذاب حتى اتى عليه بين يدي الرسول يترحم عليه ، ويدعو له ، وبقيت ام سلمة وحدها لاولادها الاربعة تبر بهم بر الاب الشفوق ، وتحنو عليهم حنوها البالغ .

ويرغب اليها الرسول ان تقترن به ليجبر كسرها ، ويأسو كلمها ، ويجلو عن فؤادها ظلام حزنه وترحه ، وليرى اهلها المشركون انهم قد غدوا اصهار الرسول ، فهو ادعى لجلب قلوبهم ، واستمالة هواهم ، وتخفيف غلوائهم ، ولكنها لعظيم الحب الذي تكنه للرجل الذي يرجو ان يقترن بها ، ويسكن اليها ، ويبحث فيها عن موطن الدعة والراحة ، ولفرط غيرتها على الزوج الذي تسكن في ظله ، وطعمها في ان يكون لها وحدها ، وشديد حرصها على ان يخلو قلبها من نفث الشيطان ، وصفحة كتابها الذي يسطر فيه الرقيب خيرها وشرها من الزلل والخطايا ، ليدفعها الى اباء الزواج مخافة ان تكون حياتها الجديدة بين الضرائر مدعى لما تخوفت ، وتقول للرسول حين خطبها لنفسه :

ــ اني امرأة غيرى ، واني ذات عيال .

فيعدها أن يسأل الله لها ان يصرف عنها سلطان الغيرة ، وان يكفيها به موؤنة العيال .

وتدخل ام سلمة حياة الرجل العظيم لتعرف حقه ، وتعطيه ماهو أهله من الدفيء والحنان والرحمة ، وكأن السماء قد رأفت به فكان سكنه الى ام سلمة في وداعتها ، وبشرها ، وعظيم سجاياها ليهون هذا الصخب الجامح في بيته ، وليتخذ منها نساء الرسول في سجاياها وتساميها نبراسا يستضئن بنوره ، ودليلا يمشين على هداه . ولكم كانت تنشب بين نساء الرسول ، او بينه وبينهن من

امور كريهة ، وكانت ام سلمة فيها بيضاء الصفحة ، نقية السر ، طاهرة العلن ، لم تمد فيها بدا ، ولم تفه فيها بكلمة .

لقد كانت في حصافتها ، واناتها ، وكبر قلبها ، وسمو روحها تحكي لمحمد خديجة الكريمة فكانها عادت اليه من جديد ، تسكب في قلبه المضنى برد البشر والارتياح ، وتصعد بروحه المتعبة الى دنيا البهجة والانشراح .

ولقد كان في عقلها وحصافتها مواقف جمة ، عالية المقام ، رفيعة المكانة . ففي يوم الحديبية ، وحين اتم الرسول صلحه مع قريش ، فلم يدخل مكة للعمرة كما اراد ، وهادنها عشر سنين ، على ان يعود العام القابل لشأنه الذي حرمته ، وقام من فوره لينحر هديه ، فيحل من احرامه ، وينطلق عائدا الى المدينة ، وامر المسلمين ان يفعلوا فاذا هو امام جموعهم لاترد على ندائه ، ولا تاتمر بامره ، يدعوهم الى ذلك كراهتهم للصلح ، وماعرفوا مغزاه ، وبغضهم لمهادنة قريش ، والعودة خاضعين لارادتها وما ادركوا سرهما وشك بعضهم من ضعاف الايمان في صدق الرسول وقد وعدهم حين خرجوا من المدينة انهم سيدخلون مكة امنين ، ويلح الرسول في ندائه فلا يجيبه احد ، وينصرف عنهم غضبان اسفا الى موضع رحله حيث ام سلمة وتبصر في وجهه اثر الانفعال والاسى ، فتسأله في حيرة :

ـ ماشانك يارسول الله ؟! .

ـ عجبا ياام سلمة ، الاترين الى الناس ، آمرهم بالامر فلا يفعلونه ، قلت لهم انحروا واحلقوا وحلوا مرارا فلم يجبني احد من الناس الى ذلك ، وهم يسمعون كلامي ، وينظرون في وجهي .

فكان من رأيها ان يخرج اليهم ، ولايكلمهم :وينحر ويحلق ،

عسى ان يذروا ماهم فيه من الشقاق ، ويؤوبوا الى رشدهم حين يرونه ماضيا في امره كحد السنان لايابه لرفضهم ، ولايضعف أمام جموعهم الغاضبة . ويفعل ماقد اشارت عليه ، فاذا المسلمون قد هبوا جميعا يفعلون فعله ، ويحتذون مثاله .

ويعجب لعقلها الرجال ، فهي تدلهم على اخطائهم ، وتبصرهم مواضع هفواتهم وزلاتهم ، وتفيض عليهم من فهمها وبالغ رشدها، فهما يفيدهم ، ورشدا يهديهم .

يقول عمر :

ــ دخلت على ام سلمة لا سألها ان كانت تراجع رسول الله في امر م نالامور كما يفعل بعض أزواجه ، فكلمتها ، فقالت لي ــ عجبا لك يابن الخطاب قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي ان تدخل بين رسو لالله وازواجه ، فاخذتني أخذا كسرتني به عن بعض ماكنت اجد .

وان لرسول الله لما حوته ام سلمة من طهارة النفس ، وعظيم الخلق ، وصفاء الباطن ، ليانس اليها ، ويبهج بها ، ويجلس في ظلها العاطر طويلا ، ويعشو اليها كلما ولج قلبه الحزن ، وتبصر نساء النبي مايبديه الرسول من تفضيلها عليهن ، وانسه الشديد بها ، ولهوفه الى السكن اليها ، فتشب لظى الغيره منها والحسد لها لدى بعض نسوته فيأتمرن بها في نفس النبي ، يحلمن ان يصبن منه ان يقل مواصلتها ، والمكث لديها ، ان لم ينلن به نفرته منها ، وبعده عنها .

واشربت ام سلمة حب اهلالبيت من وصاة الله بمودتهم ،

وتمجيده لهم ، ومن قول النبي فيهم ، وفعله معهم ، فلم تعتـــم شفتاها ترددان ذكرهم، وان مجالسها لاتخلو من مدحهم ، وبيـــان فضلهم ، ومنزلتهم ، واذا رات يوما انهم قد انتقصوا حسدا وبغيا اتلعت راسها لتقمع البهتان ، وتفصح عن الحقيقة . حتى اوشكت من حبها ووفائها لهم ان تدخل في زمرتهم، فحين ينزل قول الله تعالى :

ـ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم

ويجمع النبي اهل بيته في بيتها الذي نزلت فيه هذ ه الاية ، ليرفع يديه الى بارئه يدعوه :

ـ اللهم هؤلاء اهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهـــم تطهيـــــرا .

فتقول هي طامعة بالشرف الارفع والمقام الاسمى :

ـ يارسول الله ، واني معهم ؟ .

فيجيبها المصطفى :

ـ انك الى خيــر .

ولاغرو ان يودعها النبي بعض اسرارهم ، ويدلها على اشراط امور تكون لهم ، وسمات ايام تمر عليهم ، كالذي انبأها به مـــن مصرع الحسين ، واعطاها من آياته ، وتركه بين يديها من الشاهد عليـــه .

وانها لجالسة الى جنب احد ازواج النبي امامه ، فيروح وهو ينظر في عالم الغيب الى أمر مرير كالح سيكون تكون فيه احداهــن

قطب رحاه وعمود خبائه ، فيرفع طرفه اليهما ليقول :

ـ ايتكن صاحبة الجمل الاداب، تنبحها كلاب الحواب، فتكون ناكبة عـن الصراط .

فتقولان معـا :

ـ نعوذ بالله ورسوله من ذلك .

ثم يلتفت الى احداهما ، ويضرب على ظهرها ، ويقول :

ـ اياك ان تكونيها .

وتفجع الامة بالرزء الفادح والخطب العظيم ، وتفقد نبيهـــا بعد ان لبثت في ظله تنهل من فيض لطفه ، وتهنأ في رحابه بلقاء الوحي ، وحديث السماء، وتستنير بهديه وارشاده ونصحه، ويكون لام سلمة ان تفجع فجيعة اهل البيت ، وان تجد حر الاسى والحزن لفرط ماحل بها وبهم من المصاب الاليم ، وتظل تداب كالزهراء لتبين معالم الحق ، وتدعو الى موطن الخير ، وتروح تتلو ما سمعته من فم الرسول العظيم كلماته الخالدة في حق العترة الطاهرة ، ومقامها المعلوم ، ومكانها المشهـود .

وتمر الايام اثقل على صدرها من الجبال ، وامض وقعا مـن النصال ، حتى اعتدل الامر حيث لابد من تجلد جسيم على ازاحة الاثقال ، وصبر جميل على قمع التبعات ، والاوبة بالامر الى سالف عهده سليما مشرقا .

واذ تعلم احد ازواج النبي من قد ولي الامر ، وملك الزمام ،

تغيم الدنيا في وجهها ، وتدور بها الارض ، وتقول :

ـ قتل عثمان والله مظلوما ، والله لاطلبن بدمه .

وتندفع الى غايتها تحث الناس ، وتجعل من مكانها وهي زوج الرسول ذريعة الى تملك قلوبهم ، ونيل نصرتهم وتاييدهم ، وعاونها على ذلك سلطان بني الشجرة الخبيثة الذي استشرى ، وحرصهم الشديد على ماحصلوا عليه ايام عزهم من الخير والنعمة ، ان يذهب به العدل الصارم الذي اطل على الناس لينصفهم ، واعانها على ذلك رجلان اغاظهما ان افلت الامر منهما ، ولم يشركهما من ظفر به في شيىء منه . وتروح الى ام سلمة تطلب عونها ، وتسألها ان تخرج معها في شأنها ، فاذا ابصر الناس زوجي رسولهم قد قامتا في هذا الامر فلا غرو ان يقوموا معهما ، فاذا اتهم الناس هذه انها قد اقامها الى هذا الامر ظلمها وحسدها ، فالاخرى بجنبها من عرفت بالمحبة والوفاء ـ تصرف عنها هذه التهمة ، ويكون قيامها معها ادعى لتاليبهم ، واقوى في استجلابهم ، واقطع لعذرهم .

وتدخل عليها لتقـول لها :

يابنة ابي امية انت اول مهاجرة من ازواج النبي ، وانـت اكبر امهات المؤمنين ، وكان رسول الله يقسم لنا في بيتك ، وكان جبرائيل اكثر مايكون في بيتـك .

ـ لامر ماقلت هذه المقالـة .

ـ ان القوم استتابوا عثمان ، فلما تاب قتلوه ، صائما في الشهر الحرام ، وقد عزمت على الخروج ... فاخرجي معنا لعل الله يصلح هذا الامر على ايدينا .

وكان رد ام سلمة صلدا كانه الصخر الاصم ، ماضيا كشفرة السيف المرهف ، وكان من نصحها لها ان قالت لهـا :

ـ ان عمود الاسلام لا يثاب بالنساء ان مال ، ولايراب بهن ان صدع ، حماديات النساء غض الاطراف ، وخفر الاعراض ، ماكنت قائلة لو ان رسول الله عارضك في بعض هذه الفلوات ناصة قلوصا من منهل الى آخر ؟والله لو سرت مسارك هذا ثم قيل لي ادخلـي الفردوس لاستحييت ان الفي محمدا هاتكة حجابا ضربه علي .

الانوثـة الباسـلة

ولت جموع اليهودمن بني النضير تجر أذيال الخيبة والخزي وتعظ على اصبع الندامة ، وتحترق بنار الحسرة ، فقد انطفأت شعلة احلامها التي شيدتها صروحا على ماهمت به من امرها مع النبـي ، يوم دعاها داعي الشر في نفسها الى ان تقضي عليه بصخرة عظيمة من فوق بيت من بيوتها كان النبي تحته حين اتاها يسألها على ما بينهما من عهد أن تبذل من اموالها من أجل دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو الضمري وقد ظنهما من قوم عدو للمسلمين .

فكيف تـراهـا ستنتقـم وهـي لا تقعـد علـى المسـاءة ابـدا ، وخصـمهـا العنـيـد راح يسـتعلي شيئا فشيئا حتى خضعت له الرقاب في المدينة من فداء وتضحية ، ومن ذل وخنوع ، ومثلها وهي شعب الله المختار كما تزعم لايقـر قرارها حتى تري محمدا انها لاتذل ولا تهون ، انه لابد من صولة مارد تشق غمار هذا الهول الذي قبع في المدينة ، واخرج منهـا يهودها حتى تستعيد مجدهم ، وتاخذ من تحت قدميه مقامهـم المرذول .

وينطلق منهم ركب الى قريش يقول لها انك اولى بالامر ، وانك احسن دينا ، ويستعديها على محمد وماقد فعل بها من اليم الفعل ، ويستنصرها عليه وكان حقا عليها ان تعين على خصمها ، وتظاهر عليه ، وتبذل كل شيء لقمعـه .

وحيي بن اخطب وهذا الركب الذي قاده لايقولون الا مايخالف الحقيقة ، ويفترون على دين بانت آياته لديهم ، ووضحت علاماته عندهم ، وقام له في قلوبهم اليقين على صدقه وجلاله ، وقد تحدثت ابنته صفية عن ذلك وعبرت عنه حيث تقول :

ـ لما قدم رسول الله المدينة ، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه ابي حيي بن اخطب ، وعمي ياسر بن اخطب مغلسين فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فاتيا كالين ، كسلانين ، ساقطين ، يمشيان الهوينا ، فهششت اليهما كما كنت اصنع ، فوالله ما التفت الي واحد منهما معمابهما من الغم ، وسمعت عمي ياسرا يقول لابي :

ـ اهو هو ؟ .

ـ نعم .

ـ اتعرفه وتثبته ؟ .

ـ نعم .

فما نفسك منه ؟.

ـ عداوته والله ما بقيت .

او لم يؤمن منهم عبدالله بن سلام فيفعل بهم ما كان به ان اظهر كذبهم وبهتانهم وظلمهم لمحمد ودينه ، وسترهم لما قام لديهم من الامس من علائم ودلالات قد وجدوها ووعوها فما افادوا منها شيئا ، وانه ليقول :

جئت رسول الله فقلت له يارسول الله ان يهود قوم بهت ، واني احب ان تدخلني في بعض بيوتك ، وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف انا فيهم قبل ان يعلموا باسلامي ، فانهم ان علموا به بهتوني وعابوني ، فادخلني رسول الله في بعض بيوته ،

ودخلوا عليه ، فكلموه وسألوه ، ثم قال لهم ـ اي رجل الحصين ابن سلام فيكم ؟ . قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم ، خرجت عليهم فقلت لهم :

ـ يا معشر يهود اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله انكم لتعلمون انه لرسول تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته ، فاني اشهد انه رسول الله ، واؤمن به ، واصدقه ، واعرفه .

فقالوا كذبت ، ثم وقعوا بي ، فقلت لرسول الله الم اخبرك يارسو لالله انهم قوم بهت ، اهل عذر وكذب وفجور .

وتحتشد جموع الجيش الهائل الافا كثيرة تميد الارض تحتها من قريش ومن تبعها ، ومن غطفان ومن دخل في ظلها ، وتمضي هذه الجموع نحو المدينة للغاية الكبيرة .

وتجيىء الانباء الى محمد من عمه وعينه في مكة العباس بن عبدالمطلب ، فيعد للامر عدته ، وياخذ له اهبته ، ويمضي على مشورة سلمان الفارسي فيحفر خندقا عظيما يحيط بالمدينة الى حيث وقفت البيوت كالحصن ، ويقف هو خلفه ، ويرفع النساء والصبيان والشيوخ الى الحصون بعيدا عن الساحة الرهيبة .

ولم يمض زمن طويل حتى كانت قريش وجيشها عند الخندق، تعجب لامره ، وتتحير من محمد وكيف قد اهتدى اليه ولم يفعل العرب من قبلها مثله ؟ . فاطرقت طويلا ثم رفعت راسها تهزه وتقول انه ذلك الفارسي فلا تعلم هذا الا من صنع الفرس في حروبهم

اذا ضاق بهم الامر ، واشتد عليهم الكرب ، وابصروا انهم لايطيقون رد عادية الجيش ، القادم ، ولا نرى احدا منهم في جيش الاسلام الا سلمان فهو من هدى اليه ، ودل عليه .

ولم يكتف حيي بن اخطب بهذا الجمع ، بل ارادها ان تكون ضربة قاضية لاقيام لمحمد بعدها ، فانطلق الى بني قريظة آخر أحياء اليهود في المدينة يستعينهم ، ويمنيهم ، ويطلب منهم نصرته وحيث ينيلونه مايروم يكون قد فجر البركان من امام محمد ، ومن خلفه ، ومن تحته ، وسيجدها شديدة قاسية لايقوم في ريحها الشديدة بجناح ، ولا يقف في داهيتها على قدم ويطرق الباب على كعب بن اسد سيد بني قريظة ، وكان بينهما كلام :

ـ ويحك ياكعب افتح لي .

ـ انك امرؤ مشؤوم ، وقد عاهدت محمدا فلست بناقض مابيني وبينه ، ولم ار منه الا وفاء وصدقا .

ـ ويحك افتح لي اكلمك .

ـ ما انا فاعل .

ـ ما اغلقت باب الحصن الا خوفا على طعامك ان آكل منه فاحفظه .

ولم يزل معه حتى فتح له ، فدخل ملهوفا ، منفعلا ، ليقول :
ـ جئتك بعز الدهر ، وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، وبغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدوني وعاقدوني على الا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه .

ـ جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد اهراق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيىء ، فدعني وما ابا عليه ، فاني لم ار من محمد الا صدقا ووفاء .

ولم يزل حيي معه يفتله في الذرة والغارب حتى الان له

واعطاه ماأراده ، على ان يدخل معه في الحصن يصيبه مايصيبه ان رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا .

وانطلق جند بني قريظة من فوق الوادي ومن اسفل المدينة ، وراحوا يطوفون بها ، يتحسسون امرها ، ويختبرون قوتها وطاقتها على الدفاع عن نفسها ، وانهم اذ يمشون في دروبها ليبكون من اسى ومرارة فقد سدت بالامس في وجوههم ، وعز عليهم ان يسيروا بأهوائهم في سبلها وقد كانت لهم مرتعا ومباءة ، فعليهم الساعة ان يحكموا الضربة،وان يبطشوا البطشة الاليمة، فاذا بمجدهم قد عاد، وعزهم قد رجع ، واذا الايام تضحك لهم في يثرب من جديد كانها ما كلحت ولا تجهمت وهكذا انطلقوا مع احلامهم .

وحين يعلم النبي بغدر قريظة يبعث من احلافها من جنده من يحذرها مغبة الغدر ، ويدعوها الى الوفاء والوقوف عند حد العقد بينها وبين محمد ، ويمضي سعد بن عبادة في شانه هذا فيجدها كالثور عاقصا قرنه لاتسمع لكلام ، ولاتلين لنداء ، بل تنكرت حتى لمحمد وعهده ، وراحت تنذر بالويل ، وتتوعد بالثبور .

ويجدها الجيش المؤمن اثقل عليه من كل ما سبقها ، ويقف امامها ذاهلا حيران ، تغمر قلبهوبصره رؤاها وصورها المفزعة ، وليس مما توصف به حال المسلمين امام هذا البلاء الجسيم بأروع من قول الله سبحانه :

ـ اذا جاؤوكم من فوقكم ، ومن اسفل منكم ، واذ زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا .

واما المنافقون فقد كان لهم سبيل واسع الى التهويف والتخويف ، وبث الاباطيل ، والارجاف بالجيش عسى ان تخور همته ، وتذبل عزيمته ، فتصيبمنه قريش ماارادت ، ولقد كان من كلامهم ان قالوا :

ـ كان محمد يعدنا كنوز كسرى ، وهاهو احدنا لا يأمن على نفسه ان يذهب الى الغائط .

واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا .

وتظل قريش هامدة في دنيا حيرتها من أمر الخندق ، فما الذي تفعله ، ولاطاقة لديها على اقتحامه ، والوصول الى غريمها ؟ وجند الاسلام هناك في الصوب الآخر ينظرون اليها كانها الخصم الهائل قد وقف على خندقهم .

ولابد للصمت والسكون من صرخة تطيح بهما، وصيحة تكسر أطواقهما ، وكان في فعل ابن ود تلك الصرخة والصيحة ، فحين اندفع بجراته واقدامه ليعبر الخندق ، ويقف خلفه امام المسلمين يدعوهم الى المبارزة ، كان قد جاء بصفحة جديدة للموقف ، والبسه ثوبا جديدا ، وسار به من الجمود الى التفجر ، وكان في فعله هذا قد اعلن انه سيد القوم بأسا ، واعظمهم بسالة واقداما ،وانه لو كان فيهم قوة وعزم فقد برزا فيه وبانا لديه ، فاذا مشت بهما اقدامهما على الساحة فقد مشت قريش على كتفهما المتين الى غايتها ، وان سقطا في هاوية الخسران فقد خسرت قريش كل شيىء ، وافلتت منها الى الفوز الوسيلة .

فما اعجب رجلا يكون هذا كله فيه ، فلو ان المسلمين ظفروا بانكساره لانكسر الجيش الكافر ، وترك الساحة ، فنآى هذا البلاء الطاغي يفجر في قلوبهم الوان الرعب .

وينبري لطالب البراز فارس الاسلام ، وصنديد الايمان ، وان الرجل ليعرفه وقد

رآى من آيات بسالته وقوته ما هو حسبه ان يعتبر به ، ويكون له مثلا يخاف مثله ، ويخشى نظيره ، ويداور عمرو عليا ، ويلين له ، ويستعطفه ان يترك برازه ليبرز لـه غيره لانه كما يزعم لايحب قتله لان اباه كان صديقه ونديمه . ويتصاول الاسدان اسد الهدى واسد الضـلالة ، فما اعجـل مـا ارتفعت راية الحق ، واندك هيكل الباطل ، ودوى صوت علي ـ الله اكبر ـ يعلـن البداية للنصـر .

فكان صـوت القضـاء ينـادي ـ هذا هـو النصر السـابغ ايها المؤمنون الصابرون قد جاءت به فتكة صارمة من فتكاتي ، فذوقوا برد النصر بعد حرالخوف من الهزيمة ، وانهلوا من معين الدعة والبهجة ، بعد مكربة المرارة واللوعة ، وارتدوا لباس السكينة واليقين بعد ان سلبته منكم غاشية الهول المبين ، واشكروا لله ربكم عظيم ما من به عليكم من تأييده وعونه، اذ انتم في ظل طاعته تمشون وفي لظى الذب عن دينه تخوضون ، تاملون نصره ، وترجون معاضدته فانزل عليكم نصره ، وايدكم بجنـده .

وهنالك في الحصون حيث النساء والشيوخ والصبيان ، ومن قعد به الجبن عن رؤية وجه النازلة تقف ابنة عبد المطلب كالاسـد بين أترابها لم يفزعها الخطب ، ولم يجد هول مانزل بساحة المسلمين من قريش واتباعها كالبحر الزاخر والعاصف المسعور ـ في قلبها

موضعا لمخافة مثلها ، ومكانا لخشية غيرها فهي تعلم انه مادام فيهم رسول الله فالله متم نعمته ، ومديم فضله ، وهو لابد ناصره ، وآخذ بيده الى النجاة ولو اطبقت عليه السماء والارض تكيدانه ، وتبغيان ان تصداه عما اراده الله له من شأن ، وتحولان بينه وبين ماأراد له ان يبلغه ، وهي تعلم بعد ذلك ان في الجيش المسلم بطلا هماما كتب الله على جبينه انه معين النصر ومنبع الظفر ، وانه وجاء نبيه ، ودرعه الوثيقة ، وحصنه المنيع ، فلو تمادى الضعف والتخاذل بالمسلمين الى أن صاروا على حالهم في احد ، فلو عز على الباسل المقدام ان يهزم الجيش كله ، فسيعرف كيف ينجو بمحمد من طوقه الرهيب ، والله بعد حالكه الاختبار ، وابتلاء الناس بعضهم ببعض ، لابد منزل نصره ، ومنجز وعده ، ولا اصدق منه بوعده ، ولا اوفى منه بعهده .

ويروح اوغاد اليهود قبل الموقف الحاسم في المعركة يطوفون بالحصون ، ويتسورونها ليعرفوا امرها ، لكان بابا الى الرزية الفادحة ، والحديث الاليم ، يكاد ينفتح على المسلمين فما اسرع ان تنقض اليهود على الحصن حين تجد فيه حرائرهم واموالهم وابناءهم ، فترى في ذلك سبيلا الى ما تبتغي من ذلهم وهوانهم ، فتاخذن النساء سبايا ،ومن الاموال والاولاد غنيمة ، فاذا ماسمع المسلمون ضاقت بهم سبلهم ، واشتد عليهم الخطب ، فلا يعلمون اي شيىء يفعلون ، ايتركون الساحة امام عدوهم المتربص بهم ، ويذهبون لرد عادية الذل بهتك نسائهم ؟ ام يظلون في مكانهم مع ما يحل بهم من خلفهم من الرزء الفادح يشل قواهم ، ويهد اعصابهم ، فاذا هم مع هذه الفظاعة الجامحة من أمرهم حتى يخوروا، ويذلوا ، وقد يعطون بايديهم من عجز وهوان .

وتلمح عديه البسالة صفية بنت عبدالمطلب واحدا منهم يلم بحصنهم فتدركها هاهنا المخافة التي لم تدخل قلبها من قبل ، وما أعز على المرأة ان تستباح ويظفر بها خصمها وتعول صفية على حسان بن ثابت ان يدفع عن ساحتهم ما يتربص بهم من البلاء ، ولكن انى لمن يفزعه التماع الاسنة وصليلها ان يشهر الحسام ، ويرتعد الرجل فرقا ، ويرتجف من خوف شديد ، ويتوسل الى مخاطبته قائلا .

— يغفر الله لك يا ابنة عبدالمطلب ، والله لقد عرفت ما انا بصاحب هذا .

ولم تجد مناصا من تقوم بالامر ، فهو خطير ، ان لم تبد فيه ما هو أهله من الموقف .

وتبصره يضطرب بين يديها في غاشيةالمنية التي حلت به من يدها ، فتوؤب يطفح جبينها بنشوة النصر ، وتعول على حسان مرة أخرى ان يذهب اليه ليستلبه ماعليه ، فانه يمنعها من ذلك حياؤها وحفاظها ، ولكن من خشي ان يسعى الى الرجل حيا ليميته ، فزع من هول ماهوسيقدم عليه من سلبه ، وهو بين يديه جثة هامدة ، فابى قائلا :

— مالي بسلبه من حاجة ياابنة عبدالمطلب .

اللئاليء والاصداف

هي لؤلؤة انبثقت من الصدف المهين ، ووردة باسمة قامت من بين الاشواك الدامية ، وكوكب زاهر شع من بين حنايا الليل البهيم ، انها رملة ابنة ابي سفيان راس الضلالة وحبل الشيطان ، وابنة هند نظيره في رسوخ الغي ، وغلواء الدهاء والخبث ، آكلة الكبد الزكي لحقد متفجر، وثار مستعر .

واذ تطل على ابنة صخر شمس الاسلام تغمر الابصار بالضياء ، وتروي القلوب الضامئة ، وتحيي الافئدة الخاوية ـ تعشقها ، وتندفع صوبها لتنعم بطيب العيش في ظل الوصال ، وبنعمى الحياة الهانئة في دنياها العاطرة ، فاذا بها تحاكي خبر الماء الزلال الذي نبع من الصخر الاصم رقراقا عذبا ، والضياء المنبعث من النار المحرقة.
وتفرب رملة والتي عرفت بأم حبيبة عن ابويها مع زوجها ، وتنآى عنهما مهاجرة الى الله ، هاربة بدينها عن وجه الوبال الذي راحت قريش تصبه على رؤوس المؤمنين ، وتفارقهما ولاتحن الى دار تؤويهما ، أو ارض تضمهما ، او مسكن تجاورهما فيه ، وافلتت من طوقهما معزوجها ، وانطلقت صوب الحبشة ، لتظل الكلاب بلوعة الجوع الى الانتقام لا تجد ماتنهشه تحرق نفسها بسعير الغيظ .

وعلى ارض الغربة يضل الزوج طريقه ، ويذر ما هاجر ليصفو له العيش معه ، وليكون له أن يظل على صحبته له ، ويستبدل عبدالله بن جحش بدينه دين الاحابش ، ويدخل النصرانية ليموت عليها .

وتبقى بعده زوجه على علمها بالحق الذي عرفته يمشي بهـــا عليه بالقدم الراسخة ، ووفائها له يشدها اليه بالحبل ألوثيقة ، فلم يكن تغربها ، ووحشتها عن أرضها وذويها ، ولا ضلال زوجها ، وانفصاله عن ركب الحق ـ بالذي يفل من عضد الايمان القوي ، او يوهن عزمة الصدق فيه ، والصبر على تحمل الاذى من اجله ، وبقيت مع القرآن تترنم بانغامه وتشرح صدرها بآياته ، وتبهج نفسها بحديثه وتجعله الانيس في الوحشة ، والصاحب في الوحدة .

وتشاء السماء ان تفتح لها من صبرها الجميل على عسرها بابا واسعة الى الخير واليسر وتاخذ بيدها في لجة المحنة التي وقعت فيها الى حياة طيبة هانئة .

فهذا النبـي حيـن توشك الجزيرة ان تدين له ، وتعطيـه قيادها ، ولما آب من صلح الحديبية عازما على فتح خيبر ، يروح يكتب لملوك الارض من حوله داعيا الى الله ، دالا على الهدى ، ويرسل الى النجاشي يرغب اليه ان يومن به ، ويتبع الحق الذي أتاه من ربه ، ويـذر ما هـو عليـه مـن ديـن قـد سـاورته اوهـام البشر ، ومازجته اكاذيبهم ، فشوهته ، وضيعته . ثم يبعث اليه مرة اخرى يساله ان يرسل من قد هاجر الى ارضه ، وان يزوجه بام حبيبه ، عسى ان يجبر كسرها ، وياسو جرحها ، ويقتل وحشتها وانفرادهـــا .

ويؤمن هذا الملك الحكيم المدرك ، ويكتم اسلامه عن قومه مخافة الغضب والنقمة ، ويفعل ما امره النبي ان يفعل ، ويرسل المهاجرين في سفينتين ، وكتب اليه ان قد اسلم على يدي من أرسله الى ارضه داعيا الى ربه ، وهاديا اليه ، وكهفا لمن معه من المستضعفـين ، ويزوجه بام حبيبة على مهر من عنده ، وينعم على القوم الذي أووا ، ولاذوا بجوره ، وهم اليوم يهمون بالرحيل ، بالهدايا ويجزل لهم العطاء ، ويسهل لهم امـر العودة .

وتأوى ام حبيبة بعد الغربة والوحدة والضيق والاذى الى ظل الرسو لالعظيم ، تجد في العيش عنده اسمى ماتحلم به المراة من حب ووفاء ، وماتنشده من بر وتكريم ، فاذا ايام الالام قد طويت صفحتها من قلبها ، وحلت مكانها صفحة الهناء والسعادة .

ويريد الله ان يتم نوره ، وينيل نبيه الفتح الاغر الذي وعده ، وتسعى قريش بظلفها الى حتفها ، وتفتح السبيل للنبي بعدوانها وشرها الى ان يذلها ، ويهدم ماتبقى من صرحها ، فهي لم تف له بما وعدته اياه من مهادنته ، وان لاتهب عليه من صوبها ريح الشر ، فعاونت بكرا وهي حليفها يوم الحديبية على خزاعة حليف الرسول ، ووقيعتها بحليفه وقيعة به ، فلقدقام نفر من قريش مع جمع من بكر لينقضوا على بني خزاعة وهم آمنون وادعون ، مطمئنون الى ماكان من الحلف والمعاهدة ، فقتلوا اناسا ، وفر الباقون يلوذون بالبيوت وحاولت قريش ان تستر شمس هذا الامر بسحاب الكذب ، وظلام التبري ، ولكن العيون قد التقت بالعيون ، وابصر الرجال الرجال ، وعرف من اصابتهم قارعة الغدر من رماهم بها . ولم تجد خزاعة الا ان تنتصر بمحمد حليفها ، فذهبت اليه تندب قتلاها ، وتئن من قرحها ، وتبكي دمها المراق على يد بكر ومن اعانها ، ويقف رسول خزاعة بين يدي النبي ليقول له :

لاهم اني ناشد محمدا — حلف ابينا وابيك الاتلدا
ان قريشا اخلفوك الموعدا — ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا — وقتلونا ركعا وسجدا

ويغضب الرسول ، ويقوم مهتاجا يجر ذيله ، قائلا :

ـ لانصرت ان لم انصر خزاعة .

ويمضي يعد للامر ويتأهب له ، وفي مكة اجتمع كبراؤها يريدون رتق هذا الفتق الذي احدثوه ، وسد الباب دون سوط العدل ان يطالهم ، لما جاؤوا من جرمهم ، وكان بينهم حوار ، قال ابن ابي سرح :

ـ أن عندي رايا ، ان محمدا ليس يغزوكم حتى يعذر لكم ، ويخيركم في خصال كلها أهون عليكم من غزوه .

ـ ماهـي ؟ .

ـ يرسل اليكم ان تدوا قتلى خزاعة ، او تبرءوا من حلـف من نقض العهد وهم بنو نفاثه ، او ينبذ اليكم العهد .

ـ احر بماقال ابن‌ابي سرح ان يكون .

فقال سهيل بن عمرو :

ـ ما خصلة ايسر علينا ان نبرامن حلف نفاثه .

فقال شيبة بن عثمان :

ـ حطت اخوانك خزاعة وغضبت لهم .

قال سهيـل :

ـ واي قريشـ لم تلد خزاعـة ؟ .

ـ لا ولكن ندي قتلى خزاعة ، فهو أهون علينا .

قال قريظة بن عبد عمرو :

ـ لا والله لانديهم ، ولا نبرأ من نفاثة ، ابر العـرب بنا ، واعمرهم لبيت ربنا ، ولكن ننبذ اليهم على السواء .

فقال ابو سفيان ليسد عليهم باب الجدال :

ـ ماهذا بشيىء ، وما الراي الا جحد الامر ان تكون قريش دخلت في نقض العهد ، أو قطع مدته ، فان قطعه قوم بغير هوى ولا مشورة فما علينا .

فقال الجميـع :

ـ هذا هو الراي ، لاراي الا الجحد لكل ماكان من ذلك .

ـ أنا اقسم اني لم اشهد ، ولم آمر ، وانا صادق ، لقد كرهت ماصنعتم ، وعرفت ان سيكون له يوم غماس ، ومالي بد أن آتي محمدا فاكلمه ان يزيد في المدة ، ويجدد العهد ، قبل ان يبلغه هذا الامـــر .

ـ قد والله أصبت .

وينطلق الرجل الى غايته ، ويمضي صوب النبي ، عسى ان يخدعه يطلب تجديد العقد ، وزيادة المدة ، فتوصد السبيل امامه للصولة عليهم طلبا لنصرة حليفه المظلوم ، ويدخل زعيم قريش على الرسول في مسجده يناشده ان يشدد مابينهما من عقد ، وان يزيد في مدة الهدنة ، ويعرف النبي مرامه ، ويبصر ماجاء له من الخديعة والحيلة ، فيسأله :

ـ ولذلك قدمت ياابا سفيان ؟ .

ـ نعـم .

ـ فهل كان قبلكم حـدث ؟ .

ـ معاذ الله .

ـ فنحن على موثقنا وصلحنا يوم الحديبية، لانغير، ولانبدل .

وخرج من لدن الرسول يجر ذيل الخيبة ، ويعصر نفسه من الالم الذي كابدته من مشهد النبي امامه بحال بينة من العلم بما كان من امر قريش ، وعزمه الاكيد على الانتصار لخزاعة ، وانه لم يعطه ماتمناه ، بل اخبره انه يسير على هدي العقد ، ويمشي على شروطه ، واعلمه لو يعلم انه لابد فاعل ماتخوفه ، وآت بما خشيه ، فقد تجاوزت قريش شروط الصلح ، وكفرت بالمواثيق ، ودارت الدنيا في عينه ، واندفعت امواج الغم تتقاذفه ، ورياح الاسى تعصف فيه، ورا حيمشي مثقلا ساهما ، لاتكاد رجلاه تقويان على حمله ، فهو لم يصب من مجيئه غايته ، وليس يدري ماالذي يقوله لقومه

وقد ابدى صفحته لهذا الامر العسير عسى ان ينقذهم من بلائه ، فما أتى بطائل . وخطر في باله ان يدخل على ام حبيبة ، فهي ابنته ، وهو منها صهر محمد ، ولاشك عنده انها ستقوم له شفيعا الى الرسول في نيل مراده ، وقضاء حاجته ، صحيح ان الايمان قد فصل بينهما ، ولكن لعل فيما كان بينهما من الهجر والفراق ان رقت القلوب ، وهاجت العواطف ، وثار الشوق الى اللقاء بعد ذلك البعاد الطويل . ويدخل عليها فتستقبله بايسر ماتستقبل به احدا غيره ، وكانها قد الفت مجيئه اليها ، ورواحه عنها ، واذ يهم ان يجلس على الفراش راحت هي تطويه من تحته ، وتذهب به بعيدا عنه ، ويقف هو مهزوزا مرتعدا ، قد اخذ العجب بلبه ، وطارت الحيرة بصوابه ، وتمالك نفسه ليقول لها :

ـ ارغبت به عني ، ام رغبت بي عنه ؟.

وترد عليه بصرامةبادية لايشوبها ضعف، وحزم شديد لايمازجه وهن ، وبقوة المؤمنة التي رسخت قدمها في الايمان ، ووعى قلبها حقائقه السامية ، وقامت اركانه على فهمه وادراكه :

ـ انه فراش رسول الله ، وانت رجس مشرك .

وياخذه الذهول مرة اخرى ، ويرى بعينه وقلبه ما تفعل العقيدة السامية بصاحبها حين تستحوذ على نفسه ، وتتملك قلبه وهواه ، فلا محل لسواها فيها ، فهي ميزانه الذي يزن به الناس ، وعينه التي ينظر بها اليهم ، فيحبهم لها ولو كان النسب بعيدا ، ويبغضهم ولو كانت الرحم ماسة ، ويقولها معاتبا :

ـ يا بنية لقد اصابك بعدي شر .

فتريه ان مااصابها ليس الا الخير ، وان مايراه منها ليس الا من آياته التي تثلج صدرها ، وتسعدها بما بلغته من شوط في درب الايمان ، ثم تعيب عليه ان يضيع الفرصة ، ولايغنمها، وقد ابصر اين يكون الحق ، واين محل الصواب، وتسفه حلمه اذ يعبد

صخرة صماء ، ويتبع شيطانا غاويا ، ويمشي على سبيل دامية مضنية .

ـ ان الله هداني للاسلام ، وانت يا ابت سيد قريش وكبيرها، كيف يخفى عنك فضل الاسلام ، وتعبد حجرا لايسمع ولايبصر .

ويرد عليها وقد أخذ منه خطب لقائه بها كل مأخذ ، وذهبت عنه شدتها في ذات دينها ، وعظم موقفها فيه أمامه بالذي بقي لديه من صلابته وتجلده :

ـ ياعجبا ، وهذا منك ايضا ، أأترك ماكان يعبد آبائي ، واتبع دين محمد ؟! .

ولم يخرج من عندها الا والدنيا قد اسودت في عينه ، وضاق به الفسيح .



شموخ الايمــان

البهجة تملأ القلوب ، والفرحة تغمر الافئدة ، والبشر يعلو الوجوه ، والري قد بدا يمحو صدى النفوس العطشى ، هذه الاهازيج والاغاريد تشنف الاسماع ، وتسحر السامعين ، وتلكم الاناشيد تبعث في النفوس من عذوبتها وطلاوتها امرا عجبا من البهجة والسرور . لم كل هذا ؟! ، تساءلت وهي عند باب بيتها تنظر الناس يندفعون افواجا ملهوفة صوب غاية واحدة ، يهرعون ويتحدثون ، والبسمات المشرقة تضيىء في وجوههم الى جنبها وجوه اخرى عمها ظـــلام التقطيب للحزن والكراهية ، وسادها قتام التأثر والانكار ، وراحت تصغي ، وانها لتسمع النساء يهزجـن :

ـ طلع البــدر علينـا	مـن ثنيات الـوداع
ايهـا المبعـوث فينـا	جئت بالامـر المطاع
وجـب الشكر علينـا	ما دعـا للـه داع

فـمن ذاك البـدر ؟! ،
ومن هذا المبعوث ؟!
ولـمن يـدعو ؟ ،

ولاح فـي ذهنهـا انـه محمـد الرسـول الـذي ظهـر فـي مكـة ، واعطتـه يثـرب نصرتهـا

واعزازها، وبذلت له ودها ووفاءها، وتنطلق الى جارتها لتستنبئها، وتاخذ منها اليقين، فطرقت عليها بابها، فشخصت لها، فاستعلمتها فاجابتها :

انه الهدى الذي سيزهق فينا روح الغواية ، والصبح المنير الذي سيهزم جحافل الليل ، والغيث المبارك الذي سيبل ظمأ الارض الخاوية ، والندى والخير اللذان سيعمان البقاع المجدبة ، انه رسول السماء الى الارض جاء الينا ليذهب عنا سلطان هداه بسلطان ضلالتنا ، وينصر بنا دينه ، ويحمي قومه المستضعفين ، لو تسمعين كلماته العذاب كيف تأخذ بمجامع القلوب ، وتسحر الالباب ، وتفجر عيون الارتياح في نفس كل حليم رشيد ، وانه ليكاد يبهر العقول من عجيب أمره في علو اخلاقه ، وسمو مزاياه ، وها انت ترين الناس بالوله والاعظام يندفعون جماعات الى المكان الذي حط عنده رحله .

فجرت في وجهها نضرة بادية كما تجري النضرة في اوصال

الشجر عند اطلالة الربيع ، وتنطلق مع الجموع صوب الرسول ، فاذا هي بالضياء الباهر قد احاطت به جموع الناس تهلل وتكبر ، ويدفع بعضها بعضا للوقوف بين يديه ، والنظر اليه ، وتمديدهافيمن مدوا مبايعة على الحب والوفاء ، والصدق في متابعة الهدى ، لم تستشر في ذلك ابا ولا زوجا الا سلامة عقلها ، وحصافة رأيها ، فدلها العقل السليم على الصواب ، وهدتها حصافة الراي الى الخير وآبت عن تلك الدنيا الناعمة الوضاءة بوجه انضر من الذي راحت به اليها ، وبروح قد خفت حتى تكاد تطير محلقة في سماء الخشوع وهاهي تحس كان ثقلا عظيما قد القته عن كاهلها المتعب ، وان شيئا مرا قد لفظته ، وفارقها النوم بما هي فيه من الطرب والنشوة يملآن اعطافها ، وحين تعرض لها صورة امسها مع الغي والضلالة ، تغطي صفحة وجهها بيدها خجلا من بشاعتها التي راحت من اليوم تطوى .

وادرك الزوج أمرها مع الدين الجديد ، فساءه ذلك ، وحز في نفسه ، التي تأبى النور ، وتبغض الحقيقة ، وقد اسلست قيادها لداعي العمى يقودها حيث يشاء أن تفلت من يده زوجه الى ما لايرضاه ، وتمضي على درب لايحبه . وراح معها يقرعها بالسخرية والاستخفاف ، ويعصف بها بالزجر والتأنيب ، فاذ هي في صلاتها يقف الى جنبها يضحك منها ، ويتهم حلمها ، ويسمها بالخرق والبلادة ، واذ تتلو من كتاب الله ما علمت يقهقه ساخرا مسفها زاعما ان هذا رجوع الى دنيا الاساطير والاوهام ، ونبذ لمسيرة الحياة الصاعدة . وتقف هذه المراة المؤمنة الصادقة في ايمانها ،: الصابرة على ما تلقاه من الاذى في سبيله لاتلوي على شيء غيره ، ولاتتبدل به حماقة الامس وضياعه ـ تقف من زوجها موقف البسالة والصلابة فتهجره ، وتشتد في هجره ، ويخشن عيشها معه ، ويصعب مراسها حتى الجأته الى الهرب عنها مغاضبا ، لايفكر في أوبة ، ولايرجو عودة الى ظل نبا به وكرهه .

ونجت ام سليم من الجحيم التي كان زوجها الاثيم يضرمها

حولها ، وامنت سطوة تسفيهه وايلامه ، وتظل الى جنب وليدها انس تغذوه لبان الايمان ، وتسقيه من كؤوسه الزاكية ، وتنشأه على الخلق الكريم والسمات العالية ، ثم شاءت ان يدنو كثيرا من النور ليظل الى جنبه يعب من نميره، فجعلته خادما عند الرسول .

وراحت الاعناق تشرأب الى سمائها البهيجة ـ وتتطاول اليها النفوس لتحظى بها زوجا كريمة،واما هادية ، وسكنا طيبا هانئا ، ولكنها تقول لمن يخطبها :

ـ لا اتزوج حتى يبلغ انس مجالس الرجال .

واذا يبلغ ولدها حيث ارادت خطبها ابو طلحة ، وكان كافرا ، فاظهرت اللين له ، وتعطفت في رده ، ووعدته ان تنيله ماتمنى ولكن لها مهرا فريدا لعله يعجب اذ يطرق خبره سمعه ، ويأتيه رسولها يعلمه ان مهرها الذي تبتغي منه هو اسلامه ، ودخوله في ظلال الحق ، وكفرانه بالباطل والطاغوت . ويشتد عجب الرجل بها ، وحرصه على نيلها ، فيعطيها ماارادت من مهرها، ويدخل دنيا الله بفضلها ، وانتقلت الى حياته لتريه محاسن المراة المسلمة ، وسجاياها الطيبة، من برها بالزوج ، ووفائها له ، وتعظيمها لمقامه ، وحرصها على قضاء شؤونه والاخذ بمشورته ، وصبرها على مايصيبها من الاذى في كنفه .

ولقد كانت تستثير دهشته في جم من مواقفها ، وتجعله ينقاد راغما الى التاسي بها ، والاقتداء على آثارها ، فمن ذلك انه كان لها منه صبي مرض حتى هده المرض ، فاخترمته فيه المنية في غفلة عن ابيه اذهو في شان من شوونه ، فاوصت من تعرف الا يخبره بما كان لصبيه ، ويعود الرجل وانه لابد سائلها عنه فليس ينساه ، ولاينسى داءه ، وهو الربيع الذي الم به الصروف الشديدة ، وانه ليؤمل ان يكون قد ابل او تماثل فيطيب النسيم ، وتضوع الرياض ،

وتصدح الاطيار ، واجهدت نفسها ان تصرفه عن سؤاله عنه فلم تفلح ، واجابته جاهدة الا تكون قد كذبت :

ـ هـو اسـكن ما كان .

فاستبشر واطمأن ، وقضى ليلته معها باحسن حال ، وانعم بال ، فلما أن اصبح قالت لـه :

ـ احتسب ولدك .

فيقف الوالد مدهوشا ، قد طغت فيه الحيرة ، وغلب الذهول من سلطان حلمها الكبير ، ومدى صبرها الواسع ، وكاد ان يطلق لدموعه العنان لولا أن راى نفسه امام المرأة الثاكلة هادئة محتسبة راضية بما كان من الله معهـا .

ويمضي نحو الرسول ليفخر امامه بزوجه ، وليقص عليـه ماكان من شأنها ، وانه قضى عندها ليلته لم تنبئه بموت الصبي ، ولم يتغير خلقها فيها عنه في غيرها ، فقال له النبي وهو ادرى منه برجاحتها ، وزكانتها ، وانه لا يأتي عنها الا الامـور الحميـدة ، والفعـال العالية :

ـ بارك الله لكما في ليلتكما .

ولم يزل معها رسول الله يطريها ، ويعظمها ، ويزورها في بيتها وينام على فراشها ، ويفيض عليها من هديـه ورشاده ، ويعظـم في قلبها مقام الحـق ، وياخذ بيدها الى ربوع اليقين .

وكانت لقرب النبي منها ، وشدتها في أن تنهل من معينـــه الفياض ،وتكرع في حياضه المترعة ــ من أعلى الناس معرفة به وباهل

بيته ، واشدهم حبا لهم ، وتعظيما لمقامهم ، وكانت تدعو اليهم ، وتروي في فضلهم .

وتطل لها صفحة مشرقة يوم حنين ، اذ تظهر وهي الانثى الوادعة بمظهر الفارس الهمام ، واذا بها جريئة باسلة ، تخوض الحرب ، وتجالد في غمراتها ، واذا بها وهي الضعيفة الواهنة بركان عزم وقوة تقارع الاعداء وتصاولهم على الساحة الحمراء التي فر عنها غيرها من الرجال . فما ان فتح الرسول مكة ، وهدم اصنامها ، وسحق راس الشرك فيها بقدمه حتى خشيت هوازن ان يفعل معها فعلته في مكة ، وهي قد أبت نوره ، وكرهته ، واوصدت بابها دونه ، وتمنت مدى دهره ان يصاب مما يلم به من الكرب والبلاء بالموت والفناء ، وشعرت بباسه يهم ان يلم بها ، وبسلطانه يوشك ان يعلو ساحتها ، فمضت تعد عدتها لتبدأ محمدا قبل أن يبدأها ، وجاءت بجيش غفير والوف جمة ، وعلم الرسول فعجل الخروج اليها ليبغتها ، ويدخل عليها في ارضها ، وانطلق نحوها بجيش لم يحرج به الى حرب من حروبه ، وتخرج ام سليم مع الجيش يثقلها الحمل ، ويجهدها ، ويضاعف عليها عناء المسير . وساروا والليل لم يزل يلف الدنيا بردائه ، وتتكنفها أبراده السوداء ، وهذا هو الهزيع الاخير منه ينازع جند الفجر على مقامه على وجه المعمورة ، وهم يستقبلون وادي حنين واديا منحدرا لاتكاد تثبت فيه الاقدام ، وفيما هم في انحدارهم اذ هجم عليهم عدوهم مباغتا بعزمة الاسد الصائل ، فاذا الكثرة قد تبددت ، والجموع قد تفرقت ، واذا بالالوف قد فرت عن وجه ما الم بها فرار النعم اذا الم بها وحش كاسر ، ويظل مع النبي في محنته القاسية نفر من اهل بيته ، ونفر ممن سواهم يكابدون هذا الاعصار الجامح ، وينافحون هذا الهياج الطاغي ، ويرفع الرسول صوته يدعو القوم اليه ، مناديا اياهم :

– الى اين ؟ ، انا رسول الله .

وتبصر ام سليم هذا الجراد ينتشر الى كل صوب ، والرماد

تطير به ريح الخوف الى كل ناحية ، وانها لواقفة كالجبل الراسخ لاتتزعزع ، قد امسكت بيدها خنجرا تطعن به ، وقد خشيت ان يعزها الجمل فادنت راسه منها ، فادخلت يدها في خزامته مع الخطام . انها لن تنسى محمدا ، ولن يغيب عن بالها حبه لها ، ودنوه منها ، وبره بها ، فعليها اليوم ان تصدق في وقفتها لتذوب عنه وقد همت به المنايا، وان‌تصاول دونه وقدتكثفت عليه الخطوب.

ويلمحها الرسول مع الثلة التي ثبتت معه فيقول لها :

ـ ام سليم ؟! .

ـ نعم بابي انت وامي‌يارسول‌الله ، اقتل هولاء الذين ينهزمون عنك كما تفتل الذين يقاتلونك ، فانهم لذلك أهل .

فيهش لها فرحا مسرورا ، ويقول :

ـ أو يكفي الله يا ام سليم .

ويرتفع صوت العباس جهيرا مدويا ، ينادي :

ـ يا اهل بيعة الشجرة ، يااصحاب سورة البقرة ، الى اين تفرون ؟! ، اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسو ل‌الله .

فاندفعوا راجعين ليصدقوا الله بعد ان كذبوه ، وليكفروا عن خطيئتهم الفاقرة بخوض نار الوطيس بتجلد واصطبار ، حتى ان احدهم ان ابطأ به جمله وثب عنه واخذ سلاحه،ليكون اول المبادرين الى رحض ماحل على جبينه من وصمة الهزيمة وعار الفرار .

ويؤوب ابو طلحه مع من آب ليجد زوجه مع الثابتين على ارض اللهيب لا تضعف ولاتهوى ، ويسألها عن‌شأنها بخنجرها مع

اهل الصوارم كانه قد اراد ان يدل المسلمين على موضعها في الحرب، ومكانها منها ، وان يفاخـرهم بها ، فتجيبه :

ـ ان دنا مني احد من المشركين بعجته به .

ويلتفت الى رسول الله ليقـول لـه :

ـ الا تسمع يارسول الله ماتقول ام سليم الرميصاء ؟! .

الامســـ واليـــوم

ودعت شمس اليوم النهار فالبسته ظلال الليل ، فخيم على المكان بوشاحه ، وجثم سكون عميق على الارجاء ، فارتدت الانفاس، وسكنت الحركات ، وداعب الكرى العيون حتى غلبها ، وركـــب الناس في دنيا الوسن مطايا الاحلام فساروا بها الى جهات شتـــى مضنية ومريحة ، وظلت هي وحدها في كسر من بيتها لم يكـــن الكرى ليجد اليها الا بالعناء سبيلا ، ولم يخامرهـــا الا قليـــلا ، فاوصدت بابها دونه ، واحكمت غلقه ، وهاهي على متن اعصار ، وفي احشاء بركان ، تحتدم لديها الصور الكاسفة الحزينة ، وتزخر في نفسها الحوادث الاليمة ، ففي القلب عاصفة هوجاء ، وفي النفس احاديث الابالسة والشياطين ، وامام العين رؤى لها تبريح لايطاق ، وتلويع لايوصف ، وهذا هو دابها منذ فقدت أخويها صخرا ومعاوية، قتيلين تندبهما اشد الندب ، وتبكي لثارهمها ، فهي طول الدهر بساطها الاوجاع ، وغطاؤها الالام ، وكحلها الدموع ، وشرابها الهم، وزادهـــا البكـــاء .

شبحان امامها لايفارقانها ، يثيران في نفسها جحيم اللوعـة والاسى ، احدهما اشد وقعا في نفسها من الآخر ، فصخر في قلبها اعلى مكانا ، والحزن في نفسها عليه اضرى من حزنها على أخيه ، فهو الفتى الشجاع ، والجواد المعطاء ، والاخ الكريم الناظر الـى اخته بعين البر والرعاية والاحسان ، ماجاءته في أمر قط فردها ، وما اتته في حاجة فلم يقضها ، ولطالما يضيع بمال البيت سرف زوجها ومقامراته ، فتذهب الى صخر تطلب منه المعونة فلا يردها ، بـل يقسم ماله نصفين تاخذ احدهما ، ولربما عاتبته زوجه على مايفعله لها اذ يعطيها نصف ماله ليذهب به زوجها يتلفه في لهوه وعبثه ، فيـرد عليهـــا :

والله لا امنحهـا شرارهـا	وهي حصان قد كفتني عارها
ولو هلكت مزقت خمارهـا	واتخذت من شعر صدارهـا

فكان لهذه المشاهد في نفسها اكبار راسخ لايزول ، ووفاء ثابت لايتزعزع ، حتى بدات الحياة تسير الى صوب جديد حيـث آن للشمس السرمدية ان تشرق لتبدد هذا الظلام ، وتطرد اثقـال الضلال الجاثم على قلب الحياة ، وهاهي تذري رويدا رويدا فلول الضياع وجحافل التيه . واستيقظت النفس الحزينة الكاسفة على الانشاد العذب واللحن الطروب ينشران في النفس فيض النشوة ، وسحر الانس واللذة ، يقول لها ارفعي الصدار الاليم ، وازيحـي

شعور الالم المرير ، وبددي هذه الظلمة الدامية ، والفظي هـذا الدخان الخانق ، ولتدخلي دنيا النور والبهجة ، ولتسبحي في غمرات الخير والهناء ، فلا حزن ، ولا لوعة ، ولا مرارة ، ولاضنى ، وطرق النداء الحق قلبها ــ قولوا لا اله الا الله تفلحوا ــ ، فهبت مذعورة كمن لدغته الافعى او لسعته النار ، وركبت ظهر السكينة ، بعدما كانت في كبد اللجة الطاغية ، فرست الى شاطيء الامن والدعة ، وفارقت موج الغموم يتقاذفها من كل صوب ، وجرى فيهـا دم جديد ، وروح جديدة ، واذ هي في جنة الايمان العظيمة عند رياض الزاهرة من الانس ، والمناهل العذبة من السكينة والهدوء في حيـاة باسمة ــ لايزال دمعها في تهتان على اخويها ، ويسألها السائل :

ــ ما اقرح مآقي عينيك ؟ .

ــ بكائي على السادات من مضر .
يا خنسـاء انهم في النار .

ــ ذاك اطول لعويلي عليهم ، كنت ابكي لهم
من الثار ، وانا اليوم ابكي لهم من النار .

ومن عجيب فعل الايمان في النفوس ان يقلبها رأسا على عقب ، وان يصنع منها شيئا غير الذي كان ، فحيث كانت الخنساء لاتعرف الا الشر ، غدت لاتعرف الا الخير ، وحيث كانت لاتبصر للحياة لونا

طيبا ، صارت لاتراها الا على الوجه الطيب ، وحيث كانت لاتفارق السهاد حزنا على أخويها ، راحت اليوم لاتبالي ان تبذل للمـوت بنيها ، فهذه لظى الحرب في القادسية قد شبت بين جند اللـه وجند الشيطان ، اولئك يرجون ان يفتح الناس اعينهم على هذا الخبر الجسيم ، الذي بين ايديهم عسى ان يفيئوا اليـــه ، ويسكنوا في ظلاله فينعموا ثمة بأسى العيش وأهنأه ، ويذروا ما بأيديهم من ضلالة عمياء وشقاوة قاتلة ،وهولاء يريدون الاسلطانهم وشهواتهم ، ويأبون الا تجبرهم ومنافعهم ، ليظل الناس تحت ظلهم اللاهـب يتجرعون كؤوس مرارته ، ويشقون في أطوار دعارته ، فلا يصيبون حظهم الذي شاء الله لهم من الهدى ، ولاينالون نصيبهم الذي كتب لهم من الرحمة ،فبينهم وبينهما حجاب من الجهل والتضليل ،وطوق من الذب عن مصالح الملوك ، وحماية سلطانهم ، وحفظ كيانهم .

وتدفع الخنساء ببنيها الاربعة الالى ارضعتهم ما أرتضعت من ثدي الهدى وضرع الاسلام ، وسارت بهم على ماسارت عليه مـن ضياء الحق ونور الايمان ،

والام مدرسة تعطي ابناءها من صلاحها

كنوزا لا تفنى من السداد والاستقامة حـين

تشب بهم على حـب الخير والفضيلـة ،

وكراهية الشر والرذيلة . وحين تسقيهم على الحداثة من معين الهداية ، وتبث فيهم على الصغر وروح الصدق واليقين ، فاذا كبروا كانوا على ما شبوا عليه من رسوخ الايمان وصدقه ، وحب الخير ، والبذل من اجله .

وتندفع الى المعركة لتقول لها ايتها الحرب المباركة الميمونة التي يخوضها الايمان على خصمه العنيد ، ويفجرها الحق على الباطل ، ويسعرها الهدى على الزيغ ، ان عجزت عن ان اقف فيك موقف الاشداء الاسود ، وضعفت عن ان اهبك شيئا يعينك على ان تصلي ماتنشدين ، فهذه فلذات كبدي بين يديك ، فلتجعليهم على الهوة المخيفة المجهدة جسرا الى غايتك ، ومعبرا الى بغيتك ، فلست انشد لهم اسمى من هذا ، ولا اراني اظفر بشيء اعظم اجرا وابقى ذكرا منه ، وانت خير ماتربي له الامهات ابناءها ، واحسن ما تقطع فيه اشلاءها .

وتجمع حولها بنيها ، لتقول لهم وصيتها العظيمة :

ـ يابني انكم اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا اله الا هو انكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امراة واحدة ، ماهجنت حسبكم ، ولاغيرت نسبكم ، واعلموا ان الدار الآخرة خير من الدار الفانية ، اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون ، فاذا رايتم الحرب قد شمرت عن ساقها وجللت نارا على اروافها ، فتيمموا وطيسها ، وجالدوا رسيسها ، تظفروا بالغنم والكرامة ، في دار الخلد والمقامة .

ولم تكن ساعة تودع بنيها الى ملاقات الحتوف كمن تودع

بنيها الى ذلك بالدموع المنهمرة ، والقلب المدوي فيه خوفه ، والنفس الوالهة الحيرى ، يغمرها الفزع ، وتعصف فيها رياح الذعر ، فما اقرب اليوم من البارحة ، وماأسرع مايلتفت العقل السليم الى الصواب ، والقلب الرشيد الى ضياء الحكمة والرشاد. ويمضي بنوها كالاطواد ممتطين جياد الموت متسربلين سرابيل المنايا ، تفيض فيهم وصيتها العزم الثاقب على التضحية والفداء في رحاب نصرة الله ، واعزاز امره ، وخذلان الطاغوت ودحره ، حتى يبلغ دين الله غايته اذ ينتشر على الارض ظله الكريم يفيض نورا ورحمة ونعماء .

ويخوضون لهوات الوطيس غير عابئين ولاناكلين ، ووصية امهم ملء قلوبهم ، وذكرها على شفاههم ، فهم في حومة الوغى يترنمون بذكرها ، ويتغنون بجلالها .

واذ ياتيها الناعي بفقد بنيها كلهم ؛ فكانما كان امامها بشيرا بحلول مايرجى ، ونيل مايتأمل ، فهي على البشاشة الظاهرة ، والرباطة التامة للامهات المؤمنات الباذلات ابناءهن في سبيل الله ، الصابرات على محنة الثكل بهم من اجل الحق ، وتقولها صادقة كريمة ، لها من صدقها رسوخ لايزعزعها معه كرور الايام ، ولها من كرمها عطاء دائم لاينضب ، لقد قالت :

ـ الحمد لله الذي شرفني بقتلهم .

ثقـل الولاء

سجى الليل ، وامتد ظلامه ، فسكن فيه كل شيىء الى الدعة والراحة الا هو وزوجه يبثها آلامه ، ويشكو لها ضرام قلبه المستعر ، وضنى فواده المقروح ، وعذاب نفسه المفجوعة .

اه ياآمنة لقد مضى صبحنا المجيد ، وحل مكانه الليل العنيد، يجرعنا المرارة ، ويسقينا صاب الرزايا ، لقد نال مسائل احلامه ، وشفى منا غيظه ، واطفأ لنا كل شعلة ، واتى على كل نبراس مضيىء وعلم يهـدي .

وانتفض كالليث الغضبان وقال :

ما أصنع ؟ ، والى اين اذهب ؟ انهم يحيطون بنا من كـل مكان ، العيون تترصدنا ، الايدي تشير الينا ، هو لايفتأ يصدر الامر يتلوه الامر أن أظفروني بهم ، واطعموني من لحمهم ، واسقوني كؤوسا مليئة من دمائهم ، لقد طالما ارقوني ، وحالوا بيني وبين نعماء النوم والراحة ، ولقد طالما سقوني من شراب الغموم دنانا مترعة ، انهـم صفوة خصمي وكهفه ، بذلوا له كل شيىء ، وجادوا بين يديه بما غلا ، وانهم من لم يفتأوا في ظل سلطاني على حال النفرة والكراهيـة ، ومحاولة الثورة والانتقام ، فهم دوما يكدرون صفوي : وينغصون علي عيشي .

وهاهو ياآمنة قد سار بالاقوياء والاشداء الى مناياهم ، وحشر الضعفاء في السجون ، حتى النساء حبس عليهن العويل ، وان ابن

زياد لم يزل من يوم اعنت حجر بن عدي على زبانيته الذين جاؤوا لاخذه واجدا علي ، ويستخبر السانح والبارح عما افعل ، ويبث عيونه حولي ليرصدوني ، ولعل سيده قد بعث اليه للوقيعة بي ، واهراق دمي ، ليشفي قلبه المضطرم من بغضه لي ، ونفسه التي تغلي حقدا علي لما يراه من نكير سيفي عليه ، وبلائي للاجهاز على الضلالة العمياء التي راح ينشر ظلها ، وشدتي لقمعه واذلاله .

اين ترينني ساذهب ؟ ، وليس من الحكمة ان اقف مكتوفا حتى تاتيني زبانيته لينيلوه مني رغباته ، ولعلهم الساعة ينتظرونني خلف الباب .

وتقدمت اليه آمنة تجلو بضياء البسمة والتشجيع ظلام غمومه ، وتتام همومه ، وتفيض في قلبه المكلوم سحر الاطراء ، والحمد بلسما ياسو كلومه ، ويشفي قروحه ، انك ياعمرو معدن السطوة ، ومنهل الشجاعة والاستبسال ، ولقد عرفناك باسلا مقداما ، تقبل على الموت بحب جامح ، ورغبة شديدة ، الا تذكر ياعمرو يوم جئت عليا مؤمنا به ، عارفا بحقه ، لتقول له :

ـ والله ما جئتك لمال من الدنيا تعطيه ، ولا لالتماس سلطان يرفع به ذكري ، الا لانك ابن عم رسول الله ، واولى الناس بالناس ، وزوج فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، وابو الذرية التي هي بقية رسول الله ، واعظم سهما في الاسلام من المهاجرين والانصار ، والله لو كلفتني بنقل الجبال الرواسي ، ونزح البحور الطوامي ابدا حتى

ياتي علي يومى ، وفي يدي سيفي اهز بـه عدوك ، واقوي به وليك ، ويعلي الله بـه كعبك ، ويفلح به حجتك ، ما ظننت اني اديت من حقك كل الحق الذي يجب لك عليّ .

فرفع يديه على اثر كلامك الى السماء ليسأل ربه قائلا :

ـ اللهم نور قلبه ، واهده الى الصراط المستقيم

ثم يلتفت اليك ليقول لك :

ـ ليت ان في شيعتي مائة مثلك .

الا تذكر ما صنعت في امس مك القريب يوم احتدم الصراع بين الضلالة والايمان ، واشتدت الحرب بين الشرك الجديد والاسلام ؟ ، الم تكن قائدا من قواد الجيش المسلم ، تخوض لهوات الصراع غير عابىء ولا متهيب ، فتفر عن وجهك فلول الغي كانها معزى شد عليها الذئب ؟ ، الم يضع على عاتقك علي في صفين بعض أعباء النصر فرحت تمشي بها كالطود لاتتزعزع في الزلزال ، وكالنسر لاتضعف في الريح الشديدة ؟ ، الست انت من آخى حجرا وصحبه ، وعاضدهم في قيامهم على الظلم ، ووقوفهم في وجه الظالمين ، وانكارهم عليهم ما يأتونه من بوائق الافعال ، وما ينيخون به على صدر الامة من اثقال الجور والطغيان .

لقد هزه كلامها هزا عنيفا ، وكانها ايقظته من سبات عميق كان يغرق في عبابه وانتابته رعدة شديدة ، وارتفعت في اعماقه صرخة صاخبة ، لا ليس لمثلي الخوف والجزع ، انني جلد راسخ حتى في لجج البلاء ، وانني على ماهو شأني من الصبر حتى ولو اضاعت هذه الامواج الهادرة من المحن كل صبر لمثلي ، انه الحق المبين لم يزل

وسيبقى واهله طريدين ، منبوذين ، تحف بهما البلايا ، وتحيط بهما شراك المنايا ، فلو لم يصبر اهل الحق على المحن ، ولو لم يقفوا في وجهها بالصلابة والعناد لكان قد درس ، وضاعت معالمه ، فليس له في الارض اسم ولا رسم ، وهذا طريق الصواب ، ونهج اهل البيت لو لم يتجلد أهله في داجية الخطوب ، ويصبروا امام الفتن الطاغية لذوى حين يذوي اتباعه ، ومات بموتهم ، وان لم يصبر اهل الحق ، ويربطوا على قلوبهم بالصلابة والقوة ، فمن غيرهم قمين أن يفعل ذلك؟، الايثير فيهم الحمية والغيرة ان يبصروا اهل الضياع والغواية يكابدون البلايا ، ويصارعون الالام ، حتى ينالوا مايرتجون ، ويظفروا بما يشتهون ؟ .

وتسكن افكاره الهائجة ، ويخمد اوار احاسيسه المستعرة ، ويلتفت الى زوجه وقد عزم على شيء ، انه لابد لي يا آمنة ان اتوارى عن عين الغوي ، وان اصون نفسي من فتكة الطغيان عساني اذا سلمت ان اظفر بيوم سعيد يكون لي فيه ان اصيب من الضلال واهله مايكرهانه ، واجيئهما بما يسوؤهما ، ويوهن من باسهما ، فانتقم للاسلام واهله ، فاذا غبت عنك فلا اجدك انشاء الله الا على ماتوصينني به من الجلد والصبر والاحتساب ، ولعلهم اذ لايجدون سبيلا الى شفاء قلوبهم من داء الحقد والضغينة بدمي يريقونه ، سيميلون عليك بالايذاء والتلويع ، واحسبهم سيلقون بك في ظلمة السجن ، عسى ان سمعت كان سلطان الغيرة يجرني راغما اليهم ، لااعبأ بالخوف ، ولا أبالي ما سألقى فيقضون في امرهم ، فاني اوصيك بما اوصيتني به من الصبر والتسليم لله ، واذكرك بما ذكرتني من مواقفنا الزهراء يوم كنا اتباعا امناء للحق ، وجندا باذلين لاعزازه ونصرته .

وخرج عنها متلفعا ثوب الليل ، قلبه يفيض حزنا ، ومحجراه يفيضان دمعا .

وتبقى آمنة بعده مع بقايا الليل ، وراحت تدور بها الهواجس

والظنون ، اين يمضي زوجها المستضعف ؟، واي مآمن سيضمه ؟، واي ملجأ ياوي اليه يصد عنه عيون الظالمين وباسهم ؟ ، هل تراهم قد أحسوا به يخرج من البيت فامسكوا به ؟ ، ام هل تراهم تعقبوه الى حيث يختفي فحل البلاء عليه وعلى من اختفى عنده ؟ ، ولم تسكن نائرة هذه المخاوف الا حين احست بالفجر يدنو من صفحة الافق فقامت تتهيأ للصلاة ، وسرحت في رحاب الخشوع والبهجة ، وراحت تضرع الى الله وتسأله رفقه ببعلها ،ورحمته عليه ،واحسانه اليه ، ثم جلست بعدها تستحضر الاحداث المفجعة ، وتستعيد الصور الاليمة ، ويمر امام عينيها مشهد التقي المجاهد حجر بن عدي يمشي الى حتفه صابرا محتسبا ، ويحفر قبره بيديه ، لم تهن قوته ، ولم يضعف عزمه ، ولا ضل عنه تجلده ، ويقوم قبل المنية يصلي فلا يطيل مخافة ان يظنوا به الفرق والجبن ، ورات زوجها حين احاط القوم بحجر كيف يذب عنه حتى اصابه عمود منهم فسقط مغشيا عليه . وهذا محمد بن ابي بكر يقتله الظالمون ، ويضعونه في جلد حمار ويحرقونه معه . وذلك الاشتر يداف له السم الناقع بالعسل المصفى ، وعلى شاكلته كل بني الايمان يقتلون شر تقتيل ، ويروعون افظع ترويع ، فما لوى ذلك اعناقهم ، ولا فت في صلابتهم وصمودهم ، وبين مشهد ومشهد تظهر لنا صورة الزوج الحبيب خائفا مترقبا، ينتظرماقد لاقوا ، وتمشي به قدماه الى ماقد عاينوا .

ولم تمض أيام على نأي زوجها عنها هاربا عن وجه الشر ،حتى جاءها جند العمى يسوقونها الى ظلمات الحبس ، وهاهي في السجن على الرضى والتسليم ، لم يكسف قلبها ، ولم تهتز نفسها ، ولم يتضرم فوادها ، او يلتهب حشاها رغم ضحكات الشماتة من افواه السجانين ، وبريق الانتصار والتشفي الذي يلمع في عيونهم ، ورغم انه لم يسأل عنها اخ ، ولم يزرها حميم ، فما بقي لها اخ او حميم ينعم بالطلاقة والامن ، فهم مابين قتيل قد طواه الثرى، وشريد ناد ،

وخائف متخف ، ومصفد حبيس .

وعلى انها سارت بها الايام الطويلة في سجنها على اخشن عيش واشد لون من الوان الحياة ، فهي على دأبها من النسك والعبادة ، والتسليم ، لا تتبرم ، ولا تشكو ، ولاتجزع ، حتى كان لها على هذا بين حيطان السجـن عامان .

وتمشي بعمر بن الحمق قدماهالى ما اعد له ، يتبعه مولاه زاهر مبايعا اياه على الا يتركه ، ولايفارقه ، وان يصيبه ما يصيبه ، وفلول الغي تلاحقه حتىدخل الموصل ومضى فيها يبحث عن ملجـأ يكنه ، ولكن الرجال على ظهور الخيل قد اشرفوا عليه ، فقال لمولاه :

ـ يازاهر تغيب ، فاذا قتلت فانهم سوف ياخذون رأسي ، فاذا انصرفوا فاخرج الى جسـدي فواره .

ولكن مولاه الذي لم يعرف منه الا البر والاحسان ابى ان يخذله في موطن شدته ،وان يدعه وحيدا في محنته ، فقال له :

ـ لا بل انثر نبلي ، ثم ارميهم به ، فاذا فنيت نبلي قتلت معك.

وكأن عمرو ينظر في صفحة الغيب فيقرأ من سطورها علـى مسمع مولاه ما قد غاب عنه ، لابل هو علم من عليم علمه اياه رسول الله أو صنوه ، لقد قال لزاهر آبيا الا يهرب عن وجه الرجال :
ـ لابل تفعل ماسألتك ، فينفعك الله به .

ويحمل القوم راس ابن الحمق على رؤوس العوالـي حتـى اوصلوه الى من اشتهاه هدية غالية ، وعطاء جسيما . ويظل زاهر بعده ينتظر ما توؤل اليه نبوءته ، فتمر الايام واذا بزاهر بين يدي الحسين يبذل دمه الطاهر فداء لسبط النبي ، ومشعلا من مشاعل ثورته العظيمـة .

وان آمنة لفي مكانها في سجنها اذ سمعت جلبة عند الباب تعلو منها ضحكات ساخرة ، وصيحة احدهم لصاحبه ، ما انعم لقاء الاحبة بعد الفراق الطويل ، وتحملق عيناها بالباب ، فقد احس قلبها الخافق المضطرب بقدوم شيىء ذي شأن ، وفتحت الباب فاذا في يد السجان راس يلوح به كانه بيرق انتصار ، وراح يزهو به امامها حينا ليذلها ، ويحني هامها ، وتبينت الوجه فاذا هو وجه زوجها المؤمن الهمام فاقشعر جلدها ، وارتعدت فرائصها ، وكأنها غابت عن وعيها ، فلم تحس الا والرأس قد القي في حجرها ، فضمته اليها ، ومسحت عليه ، ولبثت زمانا فاضت فيه دموعها مدرارا ، ثم رفعت راسها في وجه من اتى به لتقول له ، وكان راس زوجهافي حجرها قد فجر فيها براكين قوة وبسالة ، واجرى في نفسها انهار جراة واقدام .

ـ واحزنا لصغر سنه في دار هوان ، غيبتموه عني طويلا ، واهديتموه الي قتيلا ، فاهلا بها هدية غير قالية ولا مقلية ، اذهب الى معاوية وقل له ، ولا تطوه دونه ، لقد جئت امرا فريا ، وقتلت بارا تقيا ، ايتم الله ولدك ، واوحش منك اهلك ، ولا غفر لك ذنبك .

ولم يكتم الرجل عن اميره شيئا من كلامها ، فاستشاط غضبا على سعة صدره ، وظاهر حلمه ، وبعث اليها ليعنفها على ماقالت ، وتاتيه بين الزجر والتعنيف ، وتقف امامه غير منكسرة ولا محزونة مخافة ان يرى غريمها علىوجهها علامة الــذل ، واية الانكسار ، فيشمت ، ويفرح ، ويقول لها في عنف :

ـ انت القائلة ما قلت يا عدوة الله ؟ ،

ـ نعم ، غير ناكلة عنه ، ولا معتذرة منه .

ـ اخرجي عــن بلادي .

ـ افعل والله ، ماهي لي بوطن ، ولا احن فيها سكن ، ولقد

طال بها سهري ، واشتهر بها عبري .

وينبري من جلساء معاوية رجل كان بالامس قد أهدر محمد دمه ، ولو وجد قد تعلق باستار الكعبة لما لقي منه الاسلام ورسوله من القسوة والغلظة ، ويقول لمعاوية :

ـ يا امير المؤمنين انها منافقة ، فالحقها بزوجها .

وتلتفت اليه ، وترمقه بنظرة التحقير والاستخفاف ، وتقول لـه :

ـ صه يالكع ، يامن بيـن لحييه كجثمان
الضفدع ، ثم أنـت تدعوه الى قتلـي ، ان
تريد الا ان تكـون جبارا في الارض ، ومـا
تريد ان تكون من المصلحين .

ويـرى معاويـة انـه ان ابقـاها فـي مجلسـه اكثـر من هذا فستخشن عليه وتغلظ حتى تذله بين جلسائه ، فاومأ الى حاجبه ان يخرجها ، وتراه هي اذ يشير اليه في أمره فتقولها جريئة صارمة ، والحاجب يجرها نحو الباب ليخرجها :

ـ واعجبا لابن هند ، يشير اليّ ببنانه ، ويمنعني نوافـذ لسانه ، اما والله لأبقرنه بكلام عتيد ، كنوافذ الحديد ، او ما انا بامنة بنت الشريد .

النـداء الصامـت

لم يخطر بباله غير الشر ، ولم يرتضع من خلف الفضيلة يوما، فقد نما وترعرع في حضن الرذيلة ، وارتضع من ثدي التيه والضلال. عاش الفضيل بن عمرو ردح الطفولة وهو يحبو في اكنـاف الديجور حيث لاهدى ايمان ، ولامنار اسلام . عاش يقفو خطا الجموح والتيهان حتى تصلب عوده فيمفارزها الضارمة ،فغلظ قلبه،وقست نفسه ، فعاد وحشا ضاريا في دروب البغي بعيدا عندنيا الله الرحيبة المشرقة .

كل ذلك من ام الشوم والبلاء التي لقنت البراءة الطاهرة درسا هو النهب والسلب والاعتداء ، واوقعت طفلها في غمرة حالكة السواد من درسها المقيت ، والقته في عتمة ضنك مرير ، فراح يعمه في هوة من الضياع ليس لها قرار .

انه يرى طريقه من منظارها الاسود الذي وضعته على بصيرته ، فتاهت هي ، واضلت به طفلها المسكين ، فلم ير امامه بصيص نور يدله حيث تكون الحياة وجمالها واشراقها ، وولى يرتقي سلالم الشر ليتسلط على هام البشر ، ولم تهب عليه في يوم من الايام نفحة من ايمان ، ولا ومضة من هدى لقد وقرت واعيتاه عن أن تسمع نداء الخير ، وعشت عيناه عن سبل النجاة ، وعاش يتخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء .

عاش بعيدا عن الحياة ، عاش وحده ، ونما واصبح شابا ، وهاهو في تيهه وعماه لايحفل براجفة ، ولا ياذن لقاصفة ، وكانه قطعة من الجنادل الصماء . لقد بات يترقب هداة الانام في فترة ولو قصيرة ليتخذ طريقه الى مواطن صيده ، بات يترقب طفول شمس النهار ، وافول بدر الليل حيث الظلام دامسا ليكون نصلا فاتكا في قلب السكينة والامان .

ما اشد سروره حين تجنح الشمس للمغيب لتذرف دموعها الحمراء ، وتتشح بوشاحها القاني ، وعندما يتسرب الظلام الى الارجاء ليغمرها بعتمته وسواده حيث غفلة الآمنين ، ووحشة الضعفاء عن صحوة النهار ، فيخرج اليهم ليكسب رزقه من أرزاقهم .

لقد قلبت مقاييسه ، وضيع عليه دجى تربيته خبر الحقيقة فصار يرى الظلام نورا ، والرذيلة فضيلة ، والشر خيرا ، وهكذا هو دائما سفينة للشر تحركها رياحه حيث تشاء ، ولعله يلتفت حينا الى نفسه يناجيها ، حتام يانفس هذا التمادي في الحماقة ، والعيش المرير في اكناف الشقاوة ؟ .

اكل ذلك من امي التي لم ترعني بعين ساهرة رمداء ، ولم تتعب نفسها علي قليلا ، بل ليتها اكتفت بذلك ولم تمض تفيض في قلبي جحيم تعاستها وانحرافها ، ولو انها علمتني الفضيلة ، ودلتني على سبيل الخير لعشت كما عاش الطيبون ، ولسلكت الطريق التي سلكوا ، لقد جنت علي امي ، وماكان أحراها ان تبذر بذرة الخير عندي وانا غض غرير فتجنيها ثمارا طيبة ،ولكن مالي ولامي ارمي باللائمة كلها عليها ، اليس لابي النصيب الاوفر منها ؟ ، هل كان يرتجي وهي الشوك ان يجني منها العنب ؟، ان عليه الوزر الكبير من ضلالتي وتيهي اللذين شملني ظلهما الاليم لانه اختارها من بين النساء وهو يدرك انها ستكون منهلا ينهل منه صغاره مايفيض به .

وفي صبيحة يوم مشرق حيث النسيم البليل يحرك غدائر الحسناء المطلة على ساحة الكون ، وقد دبت الحياة فيمن عليها من الاحياء ـ مرت بجانبه فتاة في ربيع العمر ، وردة لم تفارقها اكمام الفضيلة ، ولم يبدها تعففها ، واستحياؤها ، ابصر فيها ربيع الحسن ضاحكا عاطرا ، فاخذت بلبه ، وطاش صوابه ، وراح يتبع خطاها على غير رشد حتى دخلت دارها ، وعرف المأوى الذي تركن اليه ، وعاد ليقضي نهاره تحت اطباق الهموم وكثافات الغموم ، وكان اشعة الشمس سياط تلهب ظهره ، وكان بوده لو ناهضها بكل قواه وجرها الى الغروب ، انه يعد اللحظات يترقب ساعة الانطلاق الى ذلك الملاك الذي خطر امامه فذاب به ، وهام فيه .

ودنت ساعة الافتراس ، ساعة يرجو ان يبل عطشه ، ويطفأ ظمأه ، وتسلل في خفة وحذر ، وصعد على جدار البيت الآمن في هداة السكون ، واراد ان يتحرك ولكنه وكأن جسمه قد شد الى الحائط لم يستطيع ان يفعل شيئا ، فقد كانت ثمة قوة تمسك به ، وتصيح فيه ان انتظر فعما قليل ترى النور الذي تنقشع به هذه الغشاوة التي رانت على قلبك .

وحدق في البيت فاذا الفتاة قد نهضت لتصلي في ساعة سكون الناس الى الراحة ، ولجوئهم الى النوم ، قامت لتصلي في خشوع وخشية ، تبتهل الى الله ، وتتضرع بين يديه ، وتتذلل عنده ، في

لقاء ساحر ، ووصال بهيج ، وراح هو يضحك منهـا في نفسـه ، مالها ؟! شابة قد وهبها الله هذا الجمال الاخاذ والحسن الباسم فحرمت العيون التواقة من التطلع اليه ، والقلوب الظمآنة من احتساء صهبائه ، وهاهي قد صاولت الوسن وحب الراحة فغلبتهما لانها عشقت السهر مع الصلاة في دنيا الله .

مضى يتاملها مرتجف القلب ، مضطرب الفواد ، محتبس الانفاس ، وعاد منتصبا كالصنم لايتحرك ، وقد غمره الذهول ، وغشيته الحيرة ، وما ان انهت الحسناء صلاة الليل ، حتى راحت ترتل كلام الله بشدو الورق وصدح الهزار ، فاحس لقدس الكلام ، وروعة المشهد ، رهبه عجيبة تسري في وصاله ، وخشية طاغية تجري في عروقه ، حتى اذا وصلت الى قوله سبحانه :

ـ الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ...

شعر بالقشعريرة تمشي في قسوته مشي النار في الهشيم ، وسحر الندا ءيكتسح معاقل تجبره وعناده ، واذا له في انحائه لسع كلسع الافعوان . فانتفض وكان صفعة عظيمة قد ايقظته من سباته العميق ، ووضع يده على قلبه خشية ان يفر به خفقه وارتجافه من بين جوانحه ، وانطمست عيناه في محجريهما وكاد ان يغادر وعيه ، ولكنه فتح عينيه للنور الذي راح ينبعث امواجا في انحائه الداجية ،

وهاهما يداه المغلولتان يفك عنهما وثاقهما الرهيب ، وينطلق لسانه بكل حزم وصلابة قائلا :

ـ يارب قد آن .

وولى يعدو نظير معتوه، يجوب الازقة ، وهو لايدري الى ايـن يلوي ، وقد غمرته الاضواء فاصبح لايبصر طريقه ، والعين تعشو حينا عندما تبصر النور الثاقب من بعد الاظلام الشديد ، وكـاد الليل ان يترك الديار لجحافل الصباح ، وقد اتعب الرجل عدوه ، واضناه العثار ، وهدأ بعدحين روعه ، ولكن اشباحا جمة راحـت تلاحقه ، انهم اولئك الذين آذاهم وارعب قلوبهم ، ونال منهم . ودنا من خربة كادت تنطبق جدرانها ، وسمع فيها هينمة كاد يتميزها ، فعرف ان بها قوما يرهبونه ، وسمع احدهم يقول لصحبه ـ نرحل ـ ويرد عليه الآخرون ـ بل نبقى الى الصباح لان فضيلا يقطع علينا ـ فطار صوابه ، ودخل عليهم مرتاعا فزعا ، فراعهم منظره ، وامتقعت الوانهم لرؤيته ، واضطربوا ومادوا ، ولكنه كسر أطواق الخـوف عنهم بكلامـه :

لا تخشوا باسا بعد اليوم ، لقـد نبذت مسيري الذميم ، وهجرت سبيلـي المهلكة ، وهاأنا اخشاكم كما كنتم تخشونني، واخافكم ليوم تشخص فيه الابصار كما كنتم

تخافونني ، انني دخلت دنيا الله ، وغدوت
اخافه واخشاه ، لقد عاد الوحش الكاسر
امرء سويا ، وصار السبع المفترس انسانا
وادعا ، وانقلبت حياته فاذا هي بعد الاظلام
مشرقة ، وبعد الخبث طيبة ، وبعد الالتواء
قويمة ، فهذه دروبكم منذ اليوم آمنة ليس
فيها ما يكدر صفوكم ، وتلك بيوتكم لا
تتوجسوا ان يقرعها قارع الغدر ، ولتهدا
قلوبكم بعد فورة المخافة ، ولتقر نفوسكم
بعد هياج الخشية ، لقد هطلت على سحائب
الرحمة بالهداية وشملني فضل الله
بالصلاح من خلق ضعيف في بدنه ، قوي
في يقينه كان له معي ما هو اعلى من فعل
الاقوياء ، واشد من جهد الاشداء ، واذا
بروحه الطاهره تعصف بكياني الاثيم فتحيله
ترابا ، ليقوم لي كيان جديد ، تبنيه
الموعظة الشافية ، ويرفعه النداء الحق .

وكاد الرجال أمامه الا يصدقوا ما يسمعونه منه ، وحسبوه منه سخرية بالهدى والصلاح اللذين لم يعرفهما ، ولم يلمحهما يدخلان الى قلبه ، فاني للفضيل المتمادي في طغيانه ان يعترف بجرمه

وجريرته ، وان يتنصل من دابه وسجيته ؟! ، ولكن حاله المفجعة ، واضطرابه ورعدته يشهدان له بالصدق ، ويحكيان مافي باطنه من عزمة الخير وقوة التقوى التيانبعثت بعد سبات مرير ..

ومضى فضيل يرفع عن نفسه اثقال التعاسة ، ويبدد كل ارشية الضلال التي احاطت به ، وما ان انطلق النداء العظيم ـ الله اكبر ـ حتى كان هو اول المتطهرين ، واول المصلين ، وكانت صلاته صلاة المبصر المدرك الذي وجد الابصار بعد العمى ، والنور بعد الظلام ،، وولى يردد في نفسه اين كنت عني يافجر الحقيقة ، وضياء الرحمة ؟ . اين كنت وانا اتخبط في تيهان لاحد له ؟ .

وظل شبح المراة الجليلة ماثلا امامه لايفارقه كظله ، وظلت روحها الزاكية التى سكبت في نفسه رحيق الهدى والصلاح تضمه الى حضنها الحالم ، ولم يزل يناجي ربه :

رحمة عليها يارب ، فقد دلتني على
سبيل النجاة ، وايقظت في بصيرتي ، وها
انذا مؤمن بك ، عارف بحقك بقدر ماكنت
وغدا اثيما لا اخافك ، ولا اقف عند حدك ،
فالطف بها بما فعلت ، وتحنن عليها لما
صنعت .

ويؤوب هذا الذي طواه رمس التيه بين اطواقه الى فجـــر الحياة من جديد كيوم ولدته امه بريئا طاهرا كصفحة الافق لمـا تنجلي عنها حشود الغلس ، وتعتلي هامها الشمس المنيرة .

وهكذا بددت المراة الطاهرة عن هذا الرجل اسداف الضيــاع وليالي الحرمان ، وصنعت منه بعد حين حكيما هاديا ، تفيضـ الحكمة من فمه ، وتنطلق الهدايـة بين يديه ، بنداء مبارك ، ودعوة طيبـة صامتـة .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

١٣٢٢ لسنة ١٩٧٧

مطبعة

أوفسيت الميناء

بغداد ـ هاتف ٨٨٨١٢٥٧

وافقت الـدار الوطنية على توزيعه
فـي الاسـواق

★ ★ ★

وافقت رقابـة المطبوعات على طبعـه
بموافقتها المرقمة ٦٧٥ في ١٢/٩/١٩٧٧

السـعر ٣٠٠ فلس

دار الانـوار للمطبوعات ـ بغداد ـ شارع المتنبي

مطبعة اوفسيت الميـنـاء ـ بغداد